الفصل الرابع

منهجه في نواقض التوحيد والإيمان

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : تعريف النواقض وأقسامها .

المبحث الأول : الشـــــرك .

المبحث الثاني : الكفـــــر .

المبحث الثالث : النـفـــــاق .

obeikandi.com

obeikandl.com

التمهيد
تعريف النواقض وأقسامها

أولًا : معنى النواقض في اللغة :

النواقض لغة : جمع ناقض، والناقض : اسم فاعل من النقض ، ويطلق على : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ، فهو بمعنى نكث الشيء ، وانتثار العقد ، وحل وإبطال المبرم ، وهدم وإزالة الشيء [١] .

ثانيًا : معنى النواقض في الاصطلاح :

من خلال ما سبق عرضه من معاني النقض في اللغة نستطيع أن نقول أن النواقض هي :

" الأمور التي تزيل الشيء وتقطعه وترفع حكمه وتبطله " .

ونواقض الإيمان هي : " اعتقادات أو أقوال أو أفعال تزيل الإيمان وتقطعه"[٢]

بناء على أن الإيمان حقيقة مركبة من اعتقاد وقول وعمل .

ويطلق على نواقض الإيمان عدة أسماء منها:

١- نواقض الإيمان .
٢- نواقض الإسلام .
٣- نواقض التوحيد .
٤- الردة .
٥- المكفرات .

فهذه الأسماء تطلق على الأمور التي تنقض أصل الإيمان والتوحيد ويرتد بها صاحبها إلى الكفر والشرك ، ويخرج بها من الملة .

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٤٧٠- ٤٧١ ، ولسان العرب لابن منظور ٧/ ٢٤٢ وتاج العروس للزبيدي ٥/ ٩٣ والمصباح المنير للفيومي ص ٧٦٢ .

(٢) انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ،د.عبد العزيز العبد اللطيف- دار الوطن - الرياض ط ٣عام ١٤٢٧هـ ص ٤٩ .

أما المعاصي التي لا تنقض أصل الإيمان وإنما تنقصه فلا تسمى نواقض وإنما تسمى "نواقص" .

ثالثًا : أقسام النواقض :

اختلفت عبارات العلماء في تقسيم النواقض في الظاهر ، ولكنها ترجع في حقيقة الأمر إلى حقيقة واحدة متفق عليها عند الجميع ، وهي كل ما يناقض أصل الإيمان والتوحيد ويبطله .

وأشهر التقسيمات هي :

١ - يقسمها البعض إلى : نواقض اعتقادية و نواقض قولية و نواقض عملية .

٢- ويقسمها آخرون إلى : الشرك - الكفر - النفاق .

٣- ويطلق عليها بعضهم اسمًا واحدًا هو : الردة.

وعند التحقيق في حقيقة الأقوال السابقة نجد أنها ترجع إلى شيء واحد هو : ما يخرج صاحبه من الإسلام سواء كان اعتقادًا أو قولًا أو عملا ، شركًا كان أو كفرًا أو نفاقًا ، فالخلاف بينها لفظي فقط .

وبناءً على ما سبق سوف نعرض لمنهج سيد - رحمه الله - في باب نواقض التوحيد والإيمان معتمدين التقسيم الثاني للنواقض وهو : الشرك ، والكفر ، و النفاق .

وذلك من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول
الشـــــرك

المطلب الأول
تعريف الشرك وبيان حقيقته

أولًا: معنى الشرك في اللغة: يطلق الشرك في اللغة على عدة معانٍ منها:

الاقتران وعدم الإنفراد ، والاشتراك في الشيء بين اثنين وصاعدًا، وتسوية الشيء بغيره ، والحصة والنصيب ، والكفر وغيرها . (١)

ثانيا :معنى الشرك في الاصطلاح : تنوعت عبارات العلماء في تعريفهم للشرك إلى أكثر من عشرين تعريفاً، بعضها متقارب وبعضها متداخل وبعضها يكمل بعضًا ، ومن خلال استقرائها يمكن أن نعرف الشرك بأنه :

" أن يجعل لله – تعالى– ندًا أو شريكًا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، بحيث يصرف ما هو من خصوصياته – سبحانه– لغيره على وجه الاشتراك أو التفرد " (٢)

إذا : فحقيقة الشرك تتمثل في تشبيه المخلوق بالخالق – تعالى وتقدس – في خصائصه ، أو العكس ، أو إثبات شيء من خصائص الله – تعالى– لغيره ، أو التقرب إلى غيره – سبحانه – بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه .

ولا يشترط في كون ذلك شركًا المساواة المطلقة بين الله وبين غيره ، بل المقصود مطلق الشراكة سواء كان الله – تعالى– مماثلًا فيها لغيره ، أو زائدًا عليه ، فالكل يتحقق به معنى الشرك على السواء (٣).

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٢٦٥ ، لسان العرب لابن منظور ٧/ ٩٩ ، والمفردات للراغب، ص ٢٥٩ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة، ص ٣١-٣٥ .
(٢) الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ، ص ٣٨.
(٣) المصدر السابق ، نفسه .

المطلب الثاني
منهج سيد قطب في بيان الشرك وأنواعه

يمكن بيان منهج سيد – رحمه الله– فيما يتعلق بمسألة الشرك بالله فيما يأتي :

الفرع الأول : معنى الشرك وحقيقته :

يرى سيد – رحمه الله– أن حقيقة الشرك ومعناه يتمثل في اتخاذ آلهة مع الله –سبحانه– أو تقديم الشعائر لغير الله ، أو صرف شيءٍ من خصائص الألوهية لغيره – سبحانه– وعدم إفراده بالتوجه والتلقي والطاعة و الخضوع والعبادة والحاكمية والتشريع والشعائر والشرائع ، ومن أقوال – سيد – في بيان حقيقة الشرك ما يلي :

١- يقول– رحمه الله– : " يقوم الشرك ابتداءً على إعطاء غير الله – سبحانه– شيئًا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها ، وفي مقدمتها حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها ، وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم ، وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم ، ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه وواحدة منها " . (١)

٢- ويقول أيضًا : " والشرك بالله... يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية، والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص ، كإشراك اليهود والنصارى الذي حكاه القرآن من أنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٢)، ولم يكونوا عبدوهم مع الله ، ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله ، فحرموا عليهم وأحلوا لهم ، فاتبعوهم في هذا ... فحق عليهم وصف الشرك " (٣) . " إن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته ، ولا تقديم الشعائر التعبدية له .." . (٤)

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٣١ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٩-٧٦٠ ، وينظر أيضًا ٢/ ٦٧٨ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٢ .

٣- ويقول : " فاتخاذ غير الله وليًا - بأي معنى - هو الشرك، قضية واحدة محددة، لا تقبل لينًا ولا تميعًا ، إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة، والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور، ورفض إشراك غيره معه فيها، وولاء القلب والعمل ، في الشَّعيرة والشريعة له وحده بلا شريك ، إما هذا كله فهو الإسلام ، وإما إشراك أحدٍ من عباده معه في شيءٍ من هذا كله فهو الشرك ، الذي لا يجتمع في قلبٍ واحد مع الإسلام ".[١]

٤- ويقول أيضًا : " ولا نزال في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحدًا في خصائص الألوهية ، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه مهما تسمَّوا بأسماء المسلمين ! ، فلنكن من أمر ديننا على يقين "[٢] .

٥- ويقول أيضًا: " إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله " يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحدهً ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته ، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر ، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله ، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره ، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" في أخص حقيقتها، وهذا ما يغفل

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩ ، وينظر أيضًا ٤/ ١٩٤٤.

عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان "[١]

الفرع الثاني : نشأة الشرك وأسبابه :

أولًا: نشأة الشرك في البشرية :

إن المتتبع لتاريخ العقيدة كما يذكره القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة يجد أن الأصل في بني آدم فطرة وتاريخًا هو التوحيد ، وأن الشرك إنما هو انحراف وشذوذ عن الأصل ، أما كونه الأصل فطرة : فقد دلت الأدلة على أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان مفطورًا على التوحيد قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[٢] ، وقوله -وتعالى- : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٣].

ويقول ﷺ : " كل مولود يُولد على الفطرة .... الحديث " .[٤]

وفي الحديث القدسي " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم .... الحديث " .[٥]

وأما كون التوحيد هو الأصل تاريخيًا فيتضح ذلك من خلال النصوص الشرعية التي تثبت أن الناس في تاريخهم الطويل من آدم إلى نوح -عليهما السلام - كانوا على التوحيد الخالص ، حتى حدث ما حدث في قوم نوح . قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[٦] أي : على التوحيد والدين الحق[٧] فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ . فآدم -عليه السلام- كان أول الموحدين باعتباره نبيًا مكلمًا كما

(١) المصدر السابق ٤/ ٢١١٤-٢١١٥ .
(٢) سورة الروم : الآية : ٣٠ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ،باب إذا أسلم الصبي فمات ، ١/ ٤٥٦ برقم ١٢٩٢ ومسلم، في كتاب القدر، ٤/ ١٦٢٤ برقم ٢٦٥٨ .
(٥) رواه مسلم ، في كتاب الجنة ، ٤/ ١٧٤١، برقم ٢٨٦٥ .
(٦) سورة البقرة :الآية ٢١٣.
(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٩

جاء في الحديث عن النبي ﷺ[١].

وبهذا يظهر خطأ القول بتطور العقيدة وعدم صحة نسبة الشرك إلى آدم وحواء عليهما السلام[٢].

أما سيد - رحمه الله - فيقرر أن التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة ، وأن الشرك انحراف طارئ عن الفطرة وشذوذ عن الأصل ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ﴾[٣]، يقول: " تعرض هنا قضية التوحيد من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وهم في عالم الذر، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق -حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل- ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، ولا إلى عقولهم فقد تضل وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"[٤].

وبعد أن استعرض سيد -رحمه الله- أقوال العلماء في معنى الميثاق المأخوذ على بني آدم نقل مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي أوردها الإمام إبن كثير في تقرير أن التوحيد هو الأصل في فطرة بني آدم ، وأن الشرك انحراف عن الفطرة[٥].

أما كون التوحيد هو الأصل في تاريخ البشرية فيقول سيد - رحمه الله- :" إن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يد آدم -عليه السلام- أبي البشر الأول، ثم على يد نوح - عليه السلام- أبي البشر الثاني ، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول..

(١) رواه أحمد ، ٥/ ٢٦٥ ، وابن حبان في صحيحة ، انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، للفارسي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٩١م ، ١٤/ ٦٩ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٢ ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، انظر مشكاة المصابيح للتبريزي - تحقيق الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،ط ٣ ،١٤٠٥ ، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) انظر تفاصيل أوفى لما سبق في : الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٤٦-٥٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢١٣ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩١ بتصرف يسير .

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٣٩٢ - ١٣٩٦ .

وأن الجاهلية.. كانت تطرأ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل- عليهم الصلاة والسلام - "[١]، " فالإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض ، فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض ، إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية ، فتأتيهم الدعوة فتردهم إلى الإسلام ، وهكذا إلى يومنا هذا"[٢] ، " وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا هداه ، وما من شك أنه علَّم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشَرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى! فإذا نحن رأينا قوم نوح وهم من ذرية آدم بعد أجيال قد صاروا إلى هذه الجاهلية فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعًا وأنها انحرفت عن الإسلام إليها "[٣].

ولسيد نصوص كثيرة في تقرير هذه الحقيقة نخلص منها إلى الآتي :

١- أن سيد - رحمه الله- يقرر ما قررته النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسُّنَّة من أن التوحيد هو الأصل في بني آدم فطرةً وتاريخًا،وأن الشرك انحراف وشذوذ عن ذلك الأصل

٢- أنه يرفض ما قرره علماء الأديان من الغربيين من القول بتطور العقيدة وقد سبق معنا بيان موقفة من هذه القضية بالتفصيل في الباب الثاني[٤].

٣- أنه يرفض ما جاء في بعض الآثار من نسبة الشرك إلى آدم وحواء[٥] ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٣-١٩٤٤ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٣ وينظر أيضا ١/ ٣٨٤ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٨٨٢ ، وينظر ٦/ ٣٧١٠ .

(٤) ينظر: المبحث الرابع - الفصل الأول - الباب الثاني ، و أيضا : في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢-١٨٨٥ ، ١٩٦٣ .

(٥) انظر في ذلك : تفسير الطبري ٦/ ١٤١ - ١٤٢ ، وتفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، دار طيبة - الرياض ط٣ ١٩٩٥م . ٣/ ٣١٣ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٥٢٨ .

ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1]، حيث يقول : " إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء ، إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين ، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها " عبد الحارث " ، والحارث اسم لإبليس ، ليولد صحيحًا ويعيش، ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهرٌ ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي ، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - المحرف - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء ، وهو مخالف تمامًا للتصور الإسلامي الصحيح .

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني ، فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية ، ولقد كان المشركون على عهد رسول الله -ﷺ - وقبله ، ينذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقربًا و زلفى إلى الله! ، ومع توجههم في أول الأمر إلى الله فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين ، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس ، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك ، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد ، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة ، والناس هم الناس ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2] .

" فالحديث في الآية عن قصة الانحراف في النفس - متمثلًا في قصة الزوجين - هو حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه المشركين إلى سخف ما هم عليه ، ولذلك ينتقل السياق من أسلوب القصة والحكاية إلى مواجهة المشركين بالخطاب المباشر كأنه امتداد للحديث السابق . [3]

وهذا ما قرره كثير من المحققين وأهل العلم ، وهو ما يتفق مع النصوص

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٩- ١٩٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٢ - ١٤١٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤١٥ بتصرف يسير .

الشرعية.[١]

ثانيًا: أسباب الشرك ودوافعه:

إذا كان التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة وتاريخًا، والشرك انحراف وشذوذ عن هذا الأصل، فما هي الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذا الانحراف عن خط التوحيد والوقوع في الشرك؟

أشار سيد ـ رحمه الله ـ إلى بعض أسباب ودوافع الشرك منها:

١ ـ الشيطان ومكائده:

أشار سيد - رحمه الله- إلى أن آدم - عليه السلام -هبط إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا لهداه، وأنه علم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الجاهلية التي حدثت في قوم نوح طارئة على البشرية، وأن البشرية انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية، التي ينفذ منها الشيطان، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله وإتباعه وحده، فإذا انحرف الإنسان عن هدي الله اجتاله الشيطان حتى يقذف به -بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله.[٢] " فالشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين المزدوج للإنسان، فيجتالهم عن الإسلام إلى الجاهلية "[٣]

" والشيطان وراء العدول عن شرع الله ودينه، إلى شرع الشركاء ودينهم، و هو العدو المبين الذي يقود خطى المشركين إلى الخسران والتدمير.[٤]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٥/ ٧٢ الكشاف للزمخشري ٢/ ١٠٩ وتفسير ابن كثير ٤/ ١٥٢٨ وروضة المحبين لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤١٤هـ، ص ٢٩٦، والشرك أنواعه وأحكامه للباحث ص ٥١- ٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٥ بتصرف يسير.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١١٨٤.

وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[1]، بين سيد - رحمه الله- تلاعب الشيطان بالمشركين فيقول:" لقد كان العرب - في جاهليتهم - يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ثم يتخذون لها تماثيل يسمونها أسماء الإناث : " اللات والعزى ومناه " يعبدونها بوصفها تماثيل لبنات الله في أول الأمر، ثم ينسون أصل الأسطورة ويعبدون الأصنام ذاتها ، بل يعبدون جنس الحجر.. وبعضهم كان يعبد الشيطان نصّا ، فقد كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن .

ويوضح سيد - رحمه الله- أن النص هنا أوسع مدلولًا ، فالمشركون في شركهم كله إنما يدعون الشيطان، ويستمدون منه، هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم، الذي لعنه الله بسبب معصيته وعدائه للبشر، والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله - سبحانه - إذنًا بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله ...

فالمشركون يدعون الشيطان- عدوهم القديم- ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال ، وشعور الإنسان بأن الشيطان -عدوه القديم- هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية يثير في النفس الحذر منه ومن استهوائه الذي يصرف الفطرة من التوحيد إلى الشرك "[2].

لذلك جاء التحذير الإلهي في القرآن الكريم من الشيطان ومكائده ، حتى لا يوقع البشر في الشرك والضلال بعد أن هداهم الله إلى التوحيد .

٢ـ اتخاذ الرمز " الميل إلى الإيمان بالمحسوس " :

بيَّن سيد - رحمه الله- أن حدوث أول شرك في البشرية في قوم نوح كان بإغواء الشيطان لهم من خلال اتخاذهم الأصنام في بادئ الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها غيبية أو مشهودة ، ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام، وأشهرها تلك الخمسة

(١) سورة النساء : الآية ١١٦ -١١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٧٦٠- ٧٦١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧١ .

التي ورد ذكرها في - سورة نوح - ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا "[١]

وكذلك كان حال المشركين في الجاهلية أيضًا ، من اتخاذ الأصنام رمزًا للملائكة حينًا ، وللآباء والأجداد حينا آخر، فالازدواج في عقائد المشركين بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو - فيما نحسب - سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة : مرة بضمير العاقل ملحوظًا فيها ما وراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها "[٢] .

٣ـ التقليد :

وهو من الأسباب والعوامل التي أدت إلى انتشار المظاهر الشركية في تاريخ البشر واستمرارها أيضًا، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك منها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[٤] وغيرها .

وقد أشار سيد - رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وغيرها إلى أنها أنهاتندد بالتقليد في العقيدة وتلقي شيء من أمر العقيدة من غير الله ، وتصور المشركين في تقليدهم لآبائهم في الشرك بالبهائم[٥]، وأن مقولتهم تلك تدعو إلى السخرية فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة ،إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق ولا يسأل : إلى أين نمضي ؟ ولا يعرف معالم الطريق .

٤ـ الغلو في الصالحين وتقديسهم :

فالمبالغة في الإعجاب قد يصل إلى الغلو والتقديس ، ثم إلى الشرك ومن هذا اللون من الانحراف نشأت كثير من صور الشرك في البشرية ، كشرك قوم نوح وشرك أهل الكتاب بسبب تعظيمهم لـ " عُزير" و " للمسيح " ، حتى غلوا فيهما

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٠ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤١١٥ بتصرف يسير.
(٣) سورة الزخرف : الآية ٢٣ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٥٥ بتصرف .

ونسبوهما أبناء لله- تعالى وتقدس - وكذا تقديسهم لأحبارهم ورهبانهم حتى أطاعوهم فيما أحلوا وحرموا خلافا لأمر الله ، وكشرك الجاهلين في تعظيمهم للملائكة والجن وتقديسهم على اعتبار أنهم أبناءٌ لله وبنات ، وكشرك الوثنيين الذين قدسوا الكواكب والأجرام السماوية باعتبارها رموزًا لقوى غيبيه وكان تحريف مله إبراهيم -عليه السلام- في نهاية الأمر بسبب تعظيم العرب لعمر بن لحي الخزاعي وإعجابهم به وطاعته في ما أبتدعه لهم من مظاهر الشرك[(١)].

وقد أشار سيد إلى هذا السبب كثيرًا ومن ذلك قوله : " ولعل أول خطوة في الانحراف عن التوحيد كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ، ثم تطور هذا التعظيم جيلًا بعد جيل ، فإذا أرواحهم مقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات، وإذا وراءها كهنه وسدنه يُعبِّدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة في صورة من صور الجاهلية الكثيرة ، ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله ، ولا يدين بالعبودية إلا لله وحده الانحراف خطوة واحدة لابد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله "[(٢)].

٥ـ الأوهام والظنون والحكايات والأساطير التي لا تستند إلى العقل :

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يلاحظ أن الله -تعالى- يخبر في كثير منها أن من أسباب وجود الشرك في البشرية هو انحرافهم عن منهج التفكير السليم، واعتمادهم على الأوهام والظنون والأساطير ، والتي تتحول إلى حقائق وعقائد عند المشركين وليس لها من الحقيقة نصيب ..[(٣)] ومن أوهامهم في تبرير الشرك إحالتهم ما يفعلونه من الشرك على المشيئة الإلهية خبطًا ، واعتمادًا على الأوهام والظنون .[(٤)]

---

(١) ينظر: الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه . للباحث ص٧٦ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٨٩٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٠ ، ٣/ ١٨٠٤ ، ٥/ ٣٠٣٧ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١١٨٤ ، ٥/ ٣١٨٢، ٦/ ٣٢٥٥ ،ومقومات التصور الإسلامي ص١٦٤ -١٦٥ ..

٦ـ الكبر والطغيان والخوف على المصالح والشهوات :

من أسباب وجود الشرك واستمراره ووجود الطغاة الذين يتكبرون على الحق ويُعبدون الناس لشهواتهم من خلال وضع التشريعات والنظم التي تخالف أمر الله، ويأمرون بالشرك فيطاعون خوفًا من البطش، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[١] ، فالكبر والخوف على المصالح حمل المشركين على الاستمرار بالشرك وعدم الدخول في الإسلام [٢] ، والشهوات والأهواء والتظليل والخداع هو الذي يوقع البشر في الشرك .[٣]

٧ـ انحسار مفهوم التوحيد والعبادة :

" إن انحسار معنى الألوهية و العبادة ، يؤدي بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم في دين الله، كما هو الحال اليوم في كل بلاد الأرض ، بما فيها البلاد التي يتسمى أهلها بأسماء المسلمين، ويؤدون الشعائر لله ، بينما أربابهم غير الله لأن ربهم هو الذي يحكمهم بسلطانه وشريعته وهو الذي يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه ، ويتبعون ما يشرعه لهم .[٤]

" ولما بهت مدلول "الدين" ومدلول "العبادة " في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عباده غيرا لله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان ، ومتى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح "مسلما" لا يجوز تكفيره ... وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ (العبادة) .[٥]

الفرع الثالث : أقسام الشرك وصوره بين القديم والحديث :

" القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة .. تقوم قبل كل شيء على أنه يجب أن

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٣ .
(٢) ينظر في ظلال القرآن ٤/ ١٤١٤، ١٨١٤ ، ٥/ ٢٩٧٦ ، ٦/ ٣٧١٦- ٣٧١٧ .
(٣) المصدر السابق ١٤١٤ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٣- ١٧٦٤.
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٩٠٢- ١٩٠٣ بتصرف يسير، وينظر أيضا ٣/ ١٩٤٥ ، ٥/ ٢٩٧٦، ٣٠٢٧.

يعترف الناس ابتداء بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم فلا يشركون معه أحدا في ألوهيته وربوبيته ،ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون الكون في عالم الأسباب والأقدار ،والمتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ،والمتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد[1].

وهذا الاعتراف يقوم على مدلول الإسلام الأساسي وهو يشمل ثلاثة أمور :

- الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده ، والدينونة والإتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده ، فبدونها لا يكون إسلامًا، وتخلف أحدها كتخلفها جميعا يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ويصفهم بالكفر أو الشرك قطعا[2] .

وهذا الأمر أصل من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة ،[3] ومن هذا المنطلق كان حديث سيد- رحمه الله- عن صور الشرك وأقسامه في القديم و الحديث في أكثر من موضع ومناسبة ، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : أقسام الشرك وصوره :

تحدث سيد ـ رحمه الله ـ عن أقسام الشرك وصوره من عدة نواحي :

أ- من حيث ظهوره وخفائه : حيث يقسم الشرك من هذه الناحية إلى شرك ظاهر وخفي . فالشرك الظاهر :هو اتخاذ آلهة غير الله سبحانه وتعالى بتقرب إليها بذاتها أو جعلها وسائط تقرب إلى الله كما كان الحال في شرك الجاهلية وكذا الدنيوية لغير الله والتلقي من غير الله سبحانه وتعالى أما الشرك الخفي : فهو ما يلحظ فيه غير الله ، وقد لا يتنبه إليه كثير من الناس وفي بيان هاتين الصورتين من صور الشرك يقول- سيد -: "..بعضهم يشرك الشرك الظاهر الغليظ الساذج ، كشرك الجاهلية الأولى ، وبعضهم يشرك الشرك الخفي المستتر المعقد ، فيثقل في حسه سلطان العبيد على سلطان الله ، ويخشى الناس على حياته ورزقه ومكانته ومصالحه ، والله

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٦ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص١٥١.

أحق أن يخشاه " .[١]

ويقول : "والقرآن يندد بما كان عليه الجاهليون الذين يتخذون الأصنام آلهة ، إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة ، وبعضهم يتخذ الأشجار، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان ... ويصفهم بالضلال ، ومع ذلك فالشرك ليس مقصورًا على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى ، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان، أو ذوي جاه، أو ذوي مال ويرجون فيهم ويتوجهون إليهم بالدعاء ، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ودعاؤهم شرك ، والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك ، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون " .[٢]

وفي ظلال قوله تعالى:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣]

يقول:"مشركون قيمة من قيم الأرض في تقديرهم للأحداث والأشياء والأشخاص .

- مشركون سببًا من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء .
- مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه .
- مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق .
- مشركون تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس .
- مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله .
- مشركون عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .

لذلك يقول رسول الله -ﷺ-"الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل"[٤] .

---

(١) الإسلامي التصور مقومات ص٣١١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٥٥- ٣٢٥٦ بتصرف .

(٣) سورة يوسف : الآية١٠٦ .

(٤) رواه الحاكم ٢/ ٢٩٠ وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٦٨ ،وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة ٨/ ٢٣١ برقم ٣٧٥٥ .

وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

١ - قال - ﷺ -: "من حلف بغير الله فقد أشرك "[١] .

٢- وقال- ﷺ- : " إن الرقى والتمائم شرك "[٢] .

٣- وقال- ﷺ - : " من علق تميمة فقد أشرك "[٣] .

٤- وقال- ﷺ - : " يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه "[٤] .

٥- وقال- ﷺ-: " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادي مناد : من أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك "[٥] .

٦- قال-ﷺ-: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال : "الرياء" يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء "[٦].

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان، وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة، الدينونة في شرع يتحاكم إليه -وهو نص في الشرك لا يجادل عليه -.." [٧].

ب - من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد :

حقيقة وماهية التوحيد عند سيد - رحمه الله- تقوم على إفراد الله -سبحانه-

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٢٩ برقم ١٥٣٥ وقال حديث حسن ، وصححه الألباني ، في السلسلة الصحيحة ، ٥/ ٦٩ برقم ٢٠٤٢ .

(٢) رواه أحمد ١/ ٩٨١ وأبو داود في الطب ٤/ ١٢١ برقم ٣٨٨٣ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٤٦٧ رقم ٣٣١.

(٣) رواه أحمد٤/ ١٥٦ والحاكم ٤/ ٢١٩ وحسنه الأرناؤط في تحقيق مسند أحمد ٢٨/ ٦٣٧ .

(٤) رواه مسلم في الزهد باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ١٨١٠ برقم ٢٩٨٥ .

(٥) رواه الترمذي في التفسير . ٥/ ٢٩٤ برقم ٣١٥٤ وابن ماجه ٤/ ٦٩٨ برقم ٤٢٠٣ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٢٠ برقم ٣٣ ، مكتبة المعارف - الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ .

(٦) رواه أحمد٥/ ٤٢٨ وحسنه الأرناؤط ٣٩/ ٣٩ .

(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٢-٢٠٣٣ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٢٢٨ .

بالاعتقاد، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وتحكيم وطاعة شريعته وحده ، والشرك نقيض ذلك [١] .

فالشرك إذًا من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد ينقسم إلى :

١ - شرك في الاعتقاد بغير الله .

٢- شرك في التقرب إلى غير الله بالشعائر التعبدية .

٣- وشرك في الحاكمية وتلقي الشرائع من غيره - سبحانه- وهذه الصور والأنواع الموجودة في البشر قديمًا وحديثًا .

" ولم يكن الناس فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ، إنما كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى . -"إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والإتباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ، ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى ، إما في الاعتقاد والعبادة ، وإما في الإتباع والحاكمية ، وإما فيهما جميعًا " [٢] .، " إن جاهلية العرب لم تكن تجحد الله البتة، ولم تكن تجعل معه إلهًا آخر يساويه، ولكنها كانت تجعل معه آلهة -من دونه - شفعاء يقربونهم إلى الله.. وكان من شركهم أن يبتدعوا من عند أنفسهم -بواسطة كهانهم ومشايخهم - شرائع وتقاليد في حياتهم ، ثم يزعمون أن الله شرعها لهم وأمرهم بها ، ولم يكونوا من التبجح في الشرك بحيث ينسبون هذه الشرائع لأنفسهم ، ويدعون أن لهم سلطة الحاكمية العليا التي يصدرون بها الشرائع مستقلين عن سلطان الله ! كما يتبجح به مشركو هذا الزمان ... " [٣] .

" لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة -مع الله- على سبيل الزلفى والقربى من الله ! - وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس ... وهذا هو الشرك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٩٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٥ ومعالم في الطريق ص٥٢ ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٧ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٨٣ بتصرف يسير ، ٦/ ٣٩٩٠ .

التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضًا!"[١] .

ويلخص سيد - رحمه الله- أقسام الشرك وصورة المندرجة تحتها فيقول: "وسواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله ، أو أن هناك آلهة مع الله ، أن لله أبناءً وأصهارًا ، أو أن الإله هو هذا الحجر أو هذا القمر ... سواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئا من هذا كله ، وأن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله - معه أو من دونه - وأن يحكم بغير شريعة الله ، وأن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله - معه أو من دونه - وأن يتحاكم إلى غير شرع الله - إلا هو منكر لا يملك غير إنكار القلب واللسان- فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان ، وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة والأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين "[٢] . وعمومًا فسيد - رحمه الله- يقرر أن الشرك ألوان وأنماط كثيرة، والمشركون منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء ، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين ، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم ، ومنهم من يشركون النار، ومنهم من يشركون الليل والنهار، ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغبات والأطماع ، ... لا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله "[٣].

ثانيًا: صور الشرك بين القديم والحديث:-

وعن وجود هذه الصور والأنواع من الشرك في هذا العصر يقرر سيد - رحمه الله- أن هناك تشابهًا كبيرًا بين ما كان يزاوله المشركون في الجاهلية وبين ما يزاوله بعض الناس اليوم من صور الشرك ، بل توسعت صور الشرك ومظاهره في هذا العصر كثيرًا .

- فأهل الجاهلية كانوا يعترفون - بمقتضى الفطرة - أن الله هو الخالق الرازق وحده ، لكنهم كانوا يخالفون منطق الفطرة في إفراد الخالق بالعبادة وفي إخلاص

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣ وينظر ٣/ ١٤١٤ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٨ .

الدين لله بلا شريك ، و يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه ، ثم يصوغون لها تماثيل يعبدونها مثل : اللات والعزى ومناة ، بزعم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، ...

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام ، وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقربًا إلى الله بزعمهم وطلبًا لشفاعتهم عنده "[١]. " فيقعون في الشرك - بعبادتهم مع الله -غيره- وهم يحسبون أنهم مسلمون! ماداموا لم يجحدوا وجوده ولم يتركوا عبادته " [٢].

" ومن ذلك أيضا : أن الجاهليين مع اعترافهم بوجود الله - سبحانه- وأنه الخالق الرازق ، كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله - كما يزاول ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم " المسلمين! " - وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين ما يعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق، وما يزاولونه في حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل في التشريع الذي يزاوله نفر منهم! وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك، كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم وغدًا وإلى آخر الزمان مهما اختلفت الأسماء واللافتات ، فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان! " [٣].

" و يوجد من الناس من يتخذ مع الله أو من دونه آلهة أخرى ، كانت في الماضي أصنامًا و أوثانًا أو شجرًا أو نجومًا أو ملائكةً أو جنًا،والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض .

ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد ، وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ، وفي اعتمادهم على إسناد أخرى غير الله ، والشرك ألوانٌ ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

لقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر، بينما كانوا هم الذين

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٠٣٧ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٠٢.

يقومون بحماية تلك الآلهة وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير .

غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم لا يبعدون كثيرًا عن عُبَّاد تلك الأصنام والأوثان ، فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم ، ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين! .

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها ، وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أيَّ اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية! "[1] .

ويشير-سيد - رحمه الله- إلى قضية الأصنام وحقيقتها قديما وحديثا كصورة من صور الشرك فيقرر : أن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم -عليه السلام- ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها ، لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم ، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار، أو أرواح أو أشباح . .

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله، والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها، ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة!.

ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها، كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام، وتَمَثُّل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة !.

إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله" يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة .

والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦ بتصرف يسير .

طبيعته .

– إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات ، من صنع غير الله ، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره.

إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " في أخص حقيقتها.. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان!.

– والأصنام.. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة.. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها.

– إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر.. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها، يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى. . ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها! .

– فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها ! .

–إذا رفعت " القومية " شعارًا، أو رفع " الوطن " شعارًا، أو رفع " الشعب " شعارًا، أو رفعت " الطبقة " شعارًا.. ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك

الشعارات- أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات- كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .

- فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهبًا أو شعارًا! .

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!.

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة ، ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيدًا أم شركًا؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام! .

والذين يظنون أنفسهم في " دين الله " لأنهم يقولون بأفواههم " نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ويدينون لله فعلًا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث.. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله- ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا - ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة .

فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام. .

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم ،عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!.

إن دين الله ليس بهذا الهزال إنه منهج شامل للحياة ،ودينونة لله وحده في كل جزئيات الحياة .

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه، ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه ، وعبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! .

ولينظر الناس في كل بلدٍ لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والإتباع والامتثال ؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله ، وإن كان لغير الله- معه أو من دونه - فهم في دين الطواغيت والأصنام..والعياذ بالله .! ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١) (٢).

ثالثاً : آثار الشرك ومفاسده وأضراره :

يرى سيد قطب- رحمه الله- " أن الشر كله في الأرض وأن الفساد كله في حياة الناس ، إنما ينبثقان من الانحراف - في شتى الصور- عن إفراد الله -سبحانه- بالألوهية بكل خصائصها ، وعن السماح لأي من العبيد - في شتى الصور - بادعاء شيءٍ منها " (٣).

وقد أشار سيد قطب - رحمه الله- إلى بعض مفاسد الشرك وأضراره ومنها إجمالاً:

١ - إفساد الفطرة الإنسانية.(٤)

٢- تمزيق وحدة النفس البشرية. (٥)

٣- إحباط العمل. (٦)

٤- تسويغ الخرافات والأوهام . (٧)

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٥٢.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤-٢١١٦ بتصرف يسير.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص١٨٤ وينظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٣.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٠،٦٧٨.
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٧٧٠، ٣٠٤٩.
(٦) المصدر السابق ٦/ ٢٩٥٣ وينظر أيضا ٥/ ٣٠٦١ .
(٧) المصدر السابق ٤/ ١٩٤١ .

٥- الذلة والمهانة لغير الله . [١]

٦- إغلاق أبواب الرحمة ومنع الغفران . [٢]

٧- الخوف والضلال. [٣]

٨- تحريم دخول الجنة، وإيجاب دخول النار والعذاب فيها. [٤]

رابعًا : حكم الشرك وموقف الإسلام منه :

وقف سيد - رحمه الله- كثيرًا عند الآيات التي تتحدث عن حكم الشرك ، وبين - رحمه الله- أن الشرك بالله تعالى هو أصل المحرمات ،كما قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [٥] .

فالاعتراف بألوهية الله وحده، وعدم إشراك أحد معه يعتبر القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ، ولا يغني غناءها شيء أخر .

إن الشرك - في كل صوره - هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله له ، حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله ، كماأنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله ، من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة " [٦].

فالشرك أعظم ما نهى الله عنه ، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به ، ولهذا كانت دعوة الرسل - عليهم السلام - كلهم إلى توحيد الله ونفي الشرك عنه ، يقول - سيد -: " والظلم كثيرًا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك ، بوصفه أظلم الظلم وأقبحه، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [٧] ، وفي الصحيحين " عن ابن

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٠، ١٩٤٣ ، ٢٢٢٠.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٧٨ ، ٧٦٠.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٤٢.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٤٦ ، ٢/ ٧٦٠، ٥/ ٢٨٨٥ .
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩-١٢٣٠ بتصرف .
(٧) سورة لقمان : الآية ١٣.

مسعود[١]- رضي الله عنه -أنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : " **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** " [٢] . " [٣] .

" إنه - أي الشرك - الانحراف المطلق .. وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شيء، ومدبر أمره ومقدر كل شيء، هل أقبح من ادعاء إنسان إن لله شركاء " [٤] .

" ولذلك حكم الله بأنه لا غفران لذنب الشرك - متى مات صاحبه عليه - بينما الغفران مفتوح لكل ذنب سواه ، عندما يشاء الله ، والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من دائرة الغفران ، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تمامًا ، وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبدًا ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [٥]. ولو بقي خيط واحد من خيوط الفطرة لشده الشعور بوحدانية ربه ، ولو قبل الموت بساعة ، فأما وقد غرغر - وهو مشرك - فقد انتهى أمره وحق عليه القول " [٦].

" وفي مجيء الآيات القرآنية الكثيرة في تقرير حقيقة التوحيد والنهي عن الشرك في صور شتى، والتي يؤكد بعضها بعضًا بحيث لا يبقى مع ذلك ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة " [٧] ، " ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره ، ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه ، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة ، سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة ، أم تسرب إلى مقاليد الحياة ، فالحياة وحدةٌ ما ظهر منها وما بطن،

---

(١) هو :عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبو عبد الرحمن الكوفي ، أحد السابقين إلى الإسلام وصاحب النعلين شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، وكان يشبهه في هديه وسمته ، تلقن من النبي ﷺ سبعين سورة ، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ ، انظر الخلاصة للخزرجي ص٢٤.

(٢) رواة: البخاري في التفسير ٤/ ٦٢٦ برقم ٤٢٠٧ ، ومسلم في الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٨٧ برقم ٨٦ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٢ ، ٥/ ٢٧٨٨ .

(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥٠ .

(٥) سورة النساء : الآية ١١٦.

(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٠ .

(٧) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٦ بتصرف.

والإسلام يأخذها كلًا لا يتجزأ ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا ، ويتجه بها إلى الله خالصةً واضحةً ناصعة " . (١)

وقد عالج القرآن الكريم قضية الشرك بأساليب ومؤثرات شتى ، سبق الحديث عنها في منهج الإسلام في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك(٢)، ونزيد هنا نصًا واحدًا فقط لسيد - رحمه الله- يشير فيه إلى منهج القرآن في معالجة الشرك في النفوس البشرية وبيان بطلانه حيث يقول : " وعالج القرآن الكريم هذا كله بشتى الأساليب وشتى المؤثرات منها :

- قص عليهم قصص الرسل من قبلهم، وما أرسلهم الله به من التوحيد الخالص، وموقف الجاهليات من هذه الرسالات ، وسنة الله في أخذ المكذبين .

- وعالج ظنهم أن هذه الآلهة تقربهم من الله زلفى وتشفع لهم عنده وتملك لهم - عن هذا الطريق - العز والنصر والنفع والضر ، بنفي هذا الظن وبيان صفة الله الحق وطبيعة الألوهية المتفردة التي يستحيل معها أن تكون هذه آلهة .

- وبتوجيه القلب والعقل إلى كتاب الله المفتوح -وهو شاهد بصفة الله الواحد.

- وبلمس الفطرة وتذكيرها بموقفها في ساعة الشدة ودعوة الله وحده عندها .

- وبالتحذير من النار والإطماع في النجاة ..(٣) .

خامسًا : أنواع الشرك التي تحدث عنها سيد قطب :-

تناول سيد- رحمه الله- أنواعًا ومظاهر من الشرك في القديم والحديث وقارن بينها ، ودعا إلى نبذها والعودة إلى التوحيد الخالص باعتباره أساس صلاح الحياة البشرية ، وإن كان -رحمه الله- قد ركز كثيرًا في كتبه الأخيرة وفي الأجزاء المحققة من الظلال على بيان شرك الحاكمية وصوره ، وجعله الشرك الذي تتفرع عنه أنواع كثيرة من الشرك والكفر في المجتمع إلا أنه لم تخل كتاباته من الإشارة إلى أنواع الشرك الأخرى المتمثلة في شرك الاعتقاد والعمل عمومًا حيث يرى أن تحقق

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٨ .
(٢) ينظر : المبحث الثاني من هذا الفصل .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٨ وما بعدها.

النصر للمؤمنين لا يتم إلا عندما توجد حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وحقيقة الإيمان لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله ، بما فيه أشكال الشرك الخفية [١]. " وأن القضية الأساسية في القرآن الكريم هي قضية توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ، وقيام الحياة كلها على هذا الأساس". [٢]

وفيما يلي استعراض لأنواع من الشرك التي تحدث عنها سيد ـ رحمه الله ـ :

النوع الأول : الشرك المتعلق بالاعتقاد :

وهذا النوع من الشرك له مظاهر وصور عديدة منها :

١- اعتقاد ألوهية غير الله معه أو من دونه : ومن ذلك تأليه اليهود لعزير، وتأليه النصارى للمسيح -عليه السلام- أو لروح القدس ، وتاليه المشركين للكواكب والنجوم والأصنام ، إما لذاتها أو لأنها ترمز لغيرها ، ومن ذلك أيضا تأليه المجوس للنور والظلمة [٣]. " فإذا اعتقد الإنسان في ضميره أنه ليس هناك إله ، أو أن الله الإله هو هذا الحجر، أو هذا القمر .. كل ذلك ينفي عن صاحبه الإيمان ويخرجه من الإسلام " [٤] .

٢- نسبة الولد لله واعتقاد أن له أصهارًا أو قرابة : وهذا الاعتقاد كسابقه من أنواع الشرك بنص القرآن الكريم والسُّنَّة ، فإن الله- سبحانه- أخبر أن من نسب إليه الولد كالنصارى القائلين ببنوة عيسى-عليه السلام- أو كاليهود القائلين ببنوة عزير ، أو كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله - سبحانه- تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا أو اعتقادهم أن بينه - سبحانه - وبين الجِنة نسبًا ، كل ذلك مما حكم الله على أصحابه بالشرك والكفر" [٥] .

" فالنص القرآني يلهم أن قول اليهود "عزيرابن الله "هو كقول النصارى "

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١، ١٦٦، ١٦٨، ٢٨٢ - ٢٨٣ .
(٤) المصدر السابق ص ١١٧ بتصرف يسير .
(٥) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧، ١٤٢ ، ١٦٨ وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٠ .

المسيح ابن الله " كلاهما مقصود به ما يضاهي قول الذين كفروا من قبل فهو من إسناد البنوة التي تخرج قائلها من دين الحق ، وتلحقه بالكافرين المشركين "[١].

٣- اعتقاد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود: سبق الحديث عن موقف سيد – رحمه الله– من قضية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود عند الحديث عن الربوبية ، وبيّنا عدم صحة نسبة القول بها لسيد – رحمه الله– بناءً على كلام له في دواوينه قبل التزامه بالإسلام أو بناءً على كلامه الأدبي الموهم في الظلال ، ونقلنا موقفه الصريح من هذه القضية في الأجزاء المحققة من الظلال حيث ذكر أن هذه العقيدة لا يقول بها مسلم ، وأكتفي هنا بنقل كلامه من تفسيره لسورة البقرة في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢]. يقول سيد: " وهنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، عن طريقة صدور الخلق عن الخالق ، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعها ...

والنظرية الإسلامية : أن الخلق غير الخالق ، وأن الخالق ليس كمثله شيء ، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة " وحدة الوجود " على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح : أي بمعنى – أن الوجود وخالقه وحدة واحدة .

– أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق .

– أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده .

أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس ، فالوجود وحدة في نظر المسلم على معنى أخر : وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع "[٣].

٤- شرك الواسطة والشفاعة : " إن ميزة الإسلام أنه ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته ، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته ، ليس هناك " رسم دخول " ولا

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٣٧ هامش رقم ٢ . و ١٦٤٧ وما بعدها. و٢/ ٨١٨ .
(٢) سورة البقرة : الآيات ١١٦– ١١٧ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٠٦.

ثمن لـ" تناول سر ولا بركة ولا استقبال "[١]، " وإنما يقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين لله ، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ، والاتجاه إليه – سبحانه– مباشرة بلا وسيط ولا شفيع "[٢] ، " فالأمر كله له ، والحكم كله إليه، وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى ، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة، وفقًا لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح، لا بمجرد التوسل بالشفعاء، كما كان يعتقد المشركون "[٣].

" ولهذا أبطل الله اعتقاد المشركين الذين اتخذوا آلهة من دونه لتقربهم بزعمهم إليه ، وأخبر أن شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه ، يتخذونهم أولياء ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[٤] فهذا هو الشرك "[٥] .

ويقارن سيد – رحمه الله– بين المشركين الذين كانوا يتخذون من دونه أولياء في الجاهلية ليقربوهم إليه زلفى وبين الذين يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده فيقول: " فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم – ويا للنكر والشناعة ! – يستشفعون لله – سبحانه – عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم!!

فالذين يحاولون أن يضعوا على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات كالاشتراكية.. والديمقراطية.. وما إليها.. ظانين أنهم بهذه التقدمة الذليلة يخدمون الإسلام! . .

هؤلاء يستشفعون لمنهج الله – سبحانه– عند البشر بوصفه بصفةٍ من أعمال البشر؟ فلينظروا أين يقفوا من الإسلام "[٦] .

ويقول سيد- رحمه الله- : " إن الوسيلة المأمور بها في قوله تعالى :﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٥ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٣ ، وينظر أيضا : ٢/ ٨١٩ .
(٤) سورة الزمر: الآية ٣.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٨٣، ٦/ ٣٩٩٠، ومقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٨٣ بتصرف.

إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [١]. ليست ما يفهمه البعض ممن انحرفت عقيدته بأنها الأولياء الذين يتقرب بهم إلى الله ويستشفع بهم عنده ، وإنما المقصود به " أن يلتمس الناس ما يصلهم بالله من الأسباب ، قال ابن عباس- رضي الله عنهما - : ابتغوا إليه الوسيلة، أي ابتغوا إليه الحاجة . والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية ، وكلا التفسيرين يصلح للعبارة ، ويؤدي إلى صلاح القلب، وحياة الضمير " [٢].

٥- التطير والتشاؤم : يقول - سيد - : " والتطير والتشاؤم، مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلية التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان، فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطاردًا، فإن مرَّ سانحًا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر ، وإن مرَّ بارحًا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر! وما تدري الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول ، ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه ، فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب ، وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات...وحتى هذه اللحظة ترى اللذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، تراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم (١٣)، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة " . [٣]

" إن الإسلام قد أبطل ما كان عليه الجاهليين من وثنيتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره ، وما كانوا عليه من التفكير الخرافي، وأحل محله التفكير العلمي الصحيح ، القائم على معرفة السنن الإلهية الثابتة في الوجود ومن ورائها قدره النافذ المحيط " [٤]

النوع الثاني : الشرك المتعلق بأعمال القلوب :

يقصد بأعمال القلوب : ما يقوم بالقلب من العبادات والطاعات كالإخلاص

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٩ ، ٨٨١ .
(٣) المصدر السابق ٥ / ٢٦٤٤-٢٦٤٥ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٣٥٧ بتصرف يسير .

والحب والخوف والرجاء والتوكل والولاية ونحوها[١]. وهي تابعة لتصديق القلب ومعرفته وملازمة له ، بل هي أصل أعمال الجوارح [٢].

وبناء على ذلك فان إيمان العبد لا يقوم أصلا إلا بمعرفة الله وإخلاص الأعمال له وحده لا شريك له انقيادًا وتعظيمًا ، " فلا توجد حقيقة الإيمان في القلب إلا حين يخلو من الشرك في كل صوره وأشكاله...وحين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدرة عليه ، ويتلقى تصريف الله له بالطمأنينة والرضى والقبول " [٣].

وقصد غير وجه الله ، أو توجه القلب لغير الله معه – أو من دونه – من الشرك الذي حرمه الله ونهى عنه ، ومن مظاهر الشرك المتعلقة بأعمال القلوب التي أشار إليها سيد قطب ما يأتي:

١ - شرك المحبة :

أصل الحب قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلًا ودفع المكروهات تبعًا فتميل النفس إلى الشيء إذا كان محبوبا وتنفر عنه إن كان مكروها[٤]. ومحبه الله تعالى تعني: ميل القلب إلى ربه –جل وعلا– ميلا ينجلي منه إيثاره على كل ما سواه ، ويتجه لتحصيل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فهي أصل كل عمل من أعمال الدين ، فأصل الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، والعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل ، وجمع القرآن الأمر بمحبه الله ولوازمها والنهي عما بضادها [٥]. وإذا كان الأمر كذلك فان الإشراك في المحبة مع الله غيره أصل كل شرك عملي ،فأصل شرك المشركين هو اتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله.[٦]

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

---

(١) الإيمان لابن منده ٢/ ٣٦٢، ومجموع فتاوى ابن تيميه ٧/ ١٨٦.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ٢٢٤.
(٣) في ظلال القران ٥/ ٣٠٨٦ بتصرف يسير .
(٤) مجموع فتاوى ابن تيميه ١٠/ ١٩٢ .
(٥) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص٧ـ١١ بتصرف . ومد ارج السالكين لابن القيم ٣/ ٢٧
(٦) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص٦٩، ومد ارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٦٨.

كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[١].

يقول سيد - رحمه الله - : " من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا ، كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارًا أو أشجارًا ، أو نجومًا وكواكب ، أو ملائكة وشياطينًا ، وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص ، أو إشارات واعتبارات .. وكلها شرك خفي أو ظاهر إذا ذكرت إلى جانب اسم الله ، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله ؟ ، إن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله ، لا أنفسهم ولا سواهم ، لا أشخاصًا ولا اعتبارات ولا إشارات ، ولا قيما من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ أشد حبًا لله، حبًا مطلقًا من كل موازنة ، ومن كل قيد، أشد حبًا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه ، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل ، فوق أنه تعبير صادق ، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله -سبحانه وتعالى- هي صلة الحب ، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي صله المودة والقربى، صله الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود "[٢].

٢- شرك الخوف والرجاء:

يقصد بالخوف : توقع حلول مكروهٍ ، أو فوات محبوبٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة.[٣] وهو أنواع منها :

* الخوف الذي ليس له سبب: ويسمى "الجبن" ، وهو ما أدى إلى ترك القيام ببعض الواجبات كالجهاد ونحوه ، وهذا مذموم .

* والخوف الطبيعي : كالخوف من أسدٍ أوعدوٍ، وهذا جبلي في البشر.

* وخوف التأله : وهو الخوف من الله – سبحانه ـ أن يصيبه بما يشاء متى شاء ، وهذا النوع أحد العبادات القلبية التي يجب إخلاصها لله كما قال سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن١/ ١٥٣ـ١٥٤ .وينظر أيضا ٢/ ٩١٨.

(٣) التعريفات للجرجاني ص١٣٧ ، والإرشاد للفوزان ص٥٣.

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) وهو الذي مدح الله أصحابه ووعدهم بالجزاء في الجنة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (٢).

* **والخوف الشركي :** هو خوف التأله لغير الله- سبحانه وتعالى ـ بحيث يخاف الإنسان من أن يصيبه غير الله بما شاء ومتى شاء من موت أو مرض أو فقر أو نحوه ، وهذا من أعظم الشرك لأنه يقوم على اعتقاد أن غير الله -جلّ وعلا- كائنًا من كان يملك الضر والنفع وخصائص الألوهية (٣). "فلا بد من التجرد لله ولابد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوك ، وخشية أحد غير الله لونٌ من الشرك الخفي ، ينبه إليه القرآن ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله" (٤).

أما الرجاء : فيأتي بمعنى: الأمل، والتوقع، وطلب الشيء، ويأتي بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (٥). أي : لا تخافون لله عظمة(٦). وهو مرادف للرغبة وقد جمع -سبحانه- في الأمر لعباده بين عبادتي الخوف والرجاء بقوله: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧).

وإذا تبين ما سبق كان صرف الرجاء ومثله الخوف لغير الله شركًا، نهى الإسلام عنه . يقول سيد : " ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من عباده ، فإنما هو خوفٌ واحدٌ ورهبةٌ واحدةٌ ، ولا يجتمع في قلب خوفٌ من الله وخوفٌ من شيٍ سواه ، فالعزة لله جميعًا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ فمم يخاف إذن الذي يخاف الله ؟ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(٨) ويقول "والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ..والنص

(١) سوره أل عمران: الآية ١٧٥.
(٢) سوره الرحمن :الآية ٤٦.
(٣) ينظر: الإرشاد للفوزان ص٥٨ وتيسير العزيز الحميد ص٤٨٥ والقول السديد للسعدي ص١١٦.
(٤) في ظلا القران ٣/ ١٦١٤ بتصرف يسير .
(٥) سوره نوح : الآية ١٣.
(٦) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣١٨.
(٧) سوره الأعراف : الآية ٥٦.
(٨) في ظلال القران ٦/ ٣٥٢٨.

أوسع مدلولا وأطول أمدًا ..والشرك ليس مقصورا على صوره التي كان عليها المشركون القدامى، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان أو جاه أو مال ويرجون فيهم ...وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابةً حقيقيةً وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ودعاؤهم شرك والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون .

ويقول: " والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة ، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون ، فقد تكون الأنداد في صورة أخرى خفية ، قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة ، وفي الخوف من غير الله في أي صورة ، وفي الاعتقاد بنفعٍ أو ضرٍ في غير الله في أي صورة "[١] .

"والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله طمعًا في نفع ، أو دفعًا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة وقلة الاستقرار والطمأنينة ، وهذا هو الرّهق في أسوأ صوره ، فكل شيء سوى الله وكل أحد متقلب غير ثابت، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس وعـاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه ، والله وحده هو الباقي الذي لا يـزول الحي الذي لا يموت"[٢] .

٣ـ شرك التوكل:

التوكل يعني: اعتماد القلب على الله سبحانه وحده ، وتفويض الأمر إليه والثقة به، والتوكل عبادة من العبادات القلبية المأمور بها ، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣] ، وغيرها من الآيات[٤]. وهو شروط في الإيمان ينتفي الإيمان بانتفائه، ويضعف بضعفه "[٥]. والتوكل لا يتم إلا بالأخذ بالأسباب المشروعة ،

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨ وينظر أيضا ١/ ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٢٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٢ .

(٤) ينظر:سورة المائدةالآية ٢٣، وسورة الفرقان الآية٥٨ ، وسورة آل عمران الآية ١٧٣، وسورة الأنفال الآية٢.

(٥) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٦٤.

فالأخذ بها لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره.[١] وبناء على ذلك فان التوكل الشركي هو : الاعتماد بالقلب على غير الله -جل وعلا- في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله من جلب نفع أو دفع ضر ، كالتوكل على الأموات والغائبين والطواغيت ونحوهم .

يقول سيد رحمه الله : "ولتقرير حقيقة التوكل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة، يقرر القرآن أن القوة الفاعلة ..هي قوة الله ، إليها يكون التوجه وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ونفض الأيدي من العواقب ، وتعليقها بقدر الله ...حيث لا قوة إلا قوة الله ، ولا قدرة إلا قدرته ، ولا مشيئة إلا مشيئته، وعنها تصدر الأشياء والأحداث ، وهذا لا يعفي المسلمين من إتباع المنهج وطاعة التوجيه والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد والتوكل بعد هذا كله على الله ، بذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير لله ، ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود ، فينفض يده من كل الأشباح الزائفة ، والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ، ويتوكل على الله وحده ، ويقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنانٍ أيًّا كان "[٢].

فالتوكل يقوم على " الاعتماد على الله وحده دون سواه" [٣] و"على وجه القصر والحصر "[٤].

"وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله ، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض ، وأن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان " [٥]. " فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله فليس وراء ذلك توكل، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون"[٦] .

---

(١) ينظر: نيل الأوطار للشوكاني ، دار الجيل ، طبعه عام ١٩٧٣، ١٠/ ٩٢.
(٢) في ظلال القران ١/ ٥٠٣-٥٠٤ بتصرف .وينظر أيضا: ١/ ٥٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٢٢، ٢٨٢٣ بتصرف .وينظر: ٣/ ١٧٤٣، ٦ / ٣٦٠١.
(٤) المصدر السابق ١/ ٤٦٨.
(٥) في ظلال القران ٣/ ١٨١١ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٥١٠.

٤ـ شرك الولاية :

المقصود بالولاء: المحبة والمودة والقرب، وضده البراء[١] ،والولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٢].

فهو من العبادات القلبية التي تظهر مقتضياتها على الجوارح .

والولاء الشركي : هو أن يحب الإنسان ويوادَّ الذين يحادون الله ورسوله المحبة والمودة التامة ، لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[٣].

وقد أشار سيد – رحمه الله إلى أن الولاية تكون لله وحده ولرسوله بالتبعية ، وذلك يستلزم المفاصلة الكاملة بين المؤمن وبين من يحاد الله تعالى ، وأن قاعدة الإيمان في ذاتها تقوم على الولاية لله ولرسوله والمؤمنين ، وولاء غيرهم خروجًا وارتدادًا عن الإسلام[٤]جاء التحذير منه كثيرًا في القرآن الكريم .

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾[٥]. يقول سيد – رحمه الله- : " إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا، فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عما حوله ولا أن يترهبن ، إنما المطلوب أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي المحركة والدافعة...

فإذا انقطعت آصرة العقيدة تقطعت أواصر الدم والنسب، وبطلت ولاية القرابة، فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعًا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ويعني بالظالمين هنا : المشركين .

فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع

---

(١) لسان العرب ١٥/ ٤٠١ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥.
(٣) سورة المائدة : الآية ٥١.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩٢١ بتصرف ، ١/ ٣٧٧ ، ٢/ ٩١٧ .
(٥) سورة التوبة: الآية ٢٣.

الإيمان"[١].

" فالولاء لغير الله هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام ، باعتباره مناقضًا لحقيقة الإسلام "[٢].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٣].

يقول سيد - رحمه الله- : " ما دام أن الأمر كله لله ، والقوة كلها لله ، والتدبير كله لله ، والرزق كله بيد الله. . فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟أنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه.. ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره أو باستنصاره سواء ، فمن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، هكذا ، ليس من الله في شيء لا في صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية ، فهو بعيد عن الله ، منقطع عنه ...

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات، ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: " ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ". فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية، فما يجوز هذا الخداع على الله! "[٤] .

ويشير سيد - رحمه الله- " إلى وجوب التفرقة بين الولاء للكفار والمشركين والذي هو بمعني المحبة والمودة والنصرة ، فهذا كفر وشرك مخرج من الملة ، وبين

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦١٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٣ بتصرف يسير .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٢٨.
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥-٣٨٦ بتصرف .

التسامح مع غير المسلمين في المجتمع المسلم ، فهذا شيء وهذا شيء آخر ". [١]

النوع الثالث : الشرك المتعلق بعمل اللسان " شرك الأقوال " :

ويندرج تحت هذا النوع من الشرك مظاهر كثيرة يجمعها نوعان :

الأول: شرك الدعاء.

الثاني : شرك التسوية في الألفاظ بين الله -سبحانه- وبين غيره. وبيان ذلك فيما يأتي:

١- شرك الدعاء :

الدعاء من أجَّل العبادات وأعظمها، فقد ذكره الله في القرآن الكريم في نحو ثلاثمائة موضع [٢] ، وقد سماه الله عبادة ، وتوعد من تركه استكبارا بالنار، وأخبر النبي ﷺ أن: " الدعاء هو العبادة " . [٣]

والدعاء يجمع أنواعًا كثيرة من العبادات منها : إسلام الوجه لمن يدعوه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ، والخضوع له ، والتذلل بين يديه وقصد طلب الحوائج منه وحده، فمن أسلم وجهه لغير الله فهو مشرك شاء أم أبى .

كما أن الدعاء يطلق على معاني عديدة منها: السؤال، والطلب، والاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، وغيرها.[٤]

فإذا تقرر ذلك فانه يجب إفراد الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بكل أنواعه ، من سؤال واستغاثة واستعانة واستعاذة ، فمن دعا غير الله ، أو استغاث أو استعان أو استعاذ بغيره أيًّا كان فقد وقع في الشرك .

يقول سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [٥] : " ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره، وقد يكون بالالتجاء إلى سواه،

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٤٨ وينظر أيضا: موقف سيد قطب من أهل الكتاب في الباب الثاني – فصل الثاني– المبحث الثالث– من هذا البحث.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٩/ ٤١٨.

(٣) رواة احمد ٤/ ٢٦٧ ، وأبو داود ٢/ ١٦١ برقم ١٤٧٩ ، والترمذي ٥/ ٤٢٦ برقم ٣٣٧٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٨٤ ، وصحيح أبي داود ١/ ٤٠٧ .

(٤) الشرك بالله أنواعه وأحكامه . ماجد شبالة ص ٥٤٣ وما بعدها .

(٥) سورة الجن : الآية ١٨

وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله ". [١]

و في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [٢] . يقول: " والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة، والنص أوسع مدلولا وأطول أمدًا ، فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحدًا في أي زمان وفي أي مكان؟ وكل أحد - كائنا من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعوه، ولا يملك أن يستجيب، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد ، إن الشرك ليس مقصورًا على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى ، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان، أو ذوي جاه أو مال، ويرجون فيهم، ويتوجهون إليهم بالدعاء، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية، وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ودعاؤهم شرك ، والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك ، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون، وهم لا يشعرون " . [٣]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٤]، يقول سيد - رحمه الله- : " لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ، فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين! فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين " [٥].

" وإذا كان رسول ﷺ متوعدًا بالعذاب مع المعذبين لو دعا مع الله إلهًا آخر ، وهذا محال ولكنه فرض للتقريب ، فكيف يكون غيره؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين؟! .. " [٦] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٥ .
(٢) سورة الأحقاف : الآية ٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٥٦ بتصرف يسير .
(٤) سورة يونس: الآية ١٠٦.
(٥)في ظلال القرآن ٣ / ١٨٢٥ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٩، ٢٧١٦ .

٢- شرك التسوية في الألفاظ بين الله سبحانه وبين غيره :

يقصد بهذا النوع من الشرك التسوية بين الله وبين أحد من مخلوقاته في الألفاظ ، كان يقول :ما شاء الله وشئت ، أو لولا الله وفلان ، أو الحلف بغير الله ونحوهما .

وقد ذكر سيد – رحمه الله– في تفسيره لمعنى الأنداد التي شدد القرآن الكريم في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد،أنها قد تكون في صور متعددة ، ظاهرة كالذي كان يتخذه المشركون ، أو خفية ثم أورد قول ابن عباس– رضي الله عنهما– : " الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ! وقول الرجل : لولا الله وفلان . . هذا كله به شرك "[1] . وفي الحديث " أن رجلًا قال لرسول الله – ﷺ – ما شاء الله وشئت . فقال : أجعلتني لله ندًا ؟! " [2] . ثم يعقب سيد – رحمه الله– على كلام ابن عباس – رضي الله عنهما – بقوله: " هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله ، فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة !!!" [3]

النوع الرابع : الشرك المتعلق بعمل الجوارح :

ويقصد به شرك التقرب والنسك ، وهو على نوعين :

الأول : شرك التقرب إلى غير الله بالصلاة وما هو من جنسها كالسجود والطواف ونحوه.

الثاني : شرك التقرب إلى غير الله بالنسك، كالذبح والنذر والحلف ونحوها. وبيان ذلك كما يلي :

١- شرك التقرب إلى الله بالصلاة وما هو من جنسها :

صرف الصلاة لغير الله من الأمور النادرة ، ولكن صرف أجزاء منها كالركوع

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢١٠ .

(٢) رواه أحمد ١/ ٢١٤ ، والنسائي في الكبرى ٦/ ١٤٥ برقم ١٠٨٢٤ ، وصححه الألباني في الصحيحة ١/ ٢٦٦ برقم ١٣٩ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٨ .

والسجود والطواف بغير البيت الحرام ـ باعتباره صلاه هي من الأمور التي يصرفها البعض لغير الله .

أما السجود والركوع: فهما عبادتان لا يجوز صرفهما لغير الله ، ومن صرفهما لغيره فقد أشرك ، وقد وجه الله المشركين الذين كانوا يتقربون إلى الشمس والقمر بالسجود بقوله : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[١] ،أي إن كنتم تعبدون الله حقًا فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر،واسجدوا لله الذي خلقهن ، فالخالق هو الواحد الذي يستحق أن يعبدوه" [٢].

ويبين سيد –رحمه الله –أيضًا" أن السجود ومواضعه لا ينبغي أن تكون إلا لله وحده ، فقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[٣] ، يوحي بأن السجود ـ أو مواضع السجود وهي المساجد ـ لا تكون إلا لله فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ولكل اعتبار، وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله " [٤] .

ومن مظاهر السجود لغير الله التي أشار إليها –سيد– أيضًا: التمرغ ووضع الخدود على الأعتاب والمقامات ، حيث يقول : " ويخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات في كثير من البلاد التي يسمونها "بلاد المسلمين"أنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة "[٥].

" والله يوجه رسوله – ﷺ – إلى الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله ،بقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[٦] غير ملقٍ بالًا إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم في عبادتهم" [٧].

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٧.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٤.
(٣) سورة الجن الآية ١٨.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٥.
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٥٠٦.
(٦) سورة الكوثر : ٢ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٨٨ .

٢- شرك التقرب لغير الله بالنسك وما يلحق به :

النسك هو العبادة والقربة [١] ، ويطلق لفظ النسك على الذبح والنحر الذي يقصد به التوجه والتقرب لله - سبحانه وتعالى - ، وقد فرض الله على المؤمنين إخلاص التوجه لله بهذه العبادات فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٢].

يقول - سيد -: " فهو التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف وبالمحيا والممات ، والشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه " [٣]. " التجرد لله في العبادة والاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله " [٤].

ومن مظاهر وصور هذا الشرك ما يلي :

أ- الذبح والنحر لغير الله :

والذبح لغير الله على نوعين :

الأول : ما ذبح تقربًا لغير الله ، كالذبح تقربًا للجن أو الملائكة أو الأموات وغيرهم، مع ذكر اسم غير الله على المذبوح، وهذا من أعظم أنواع الكفر والشرك بالله- سبحانه وتعالى - لما يحمله من تعظيم غير الله ، ولأنه ينشأ غالبًا من الاعتقاد في المتقرب إليه غير الله بأنه يملك الضر والنفع

يقول سيد - رحمه الله- : " وأما ما أُهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداءً للإيمان، فالإيمان يوحد الله ويفرده - سبحانه - بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته ، وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل، وأن يهل باسمه - وحده - في كل عمل وكل حركة ، وأن تصدر باسمه -وحده- كل حركة وكل عمل ، فما أهل لغير الله به، وما يسمى عليه بغير اسم الله - وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد - حرام ، لأنه ينقض الإيمان

---

(١) المفردات للراغب ص ٧٤٧ ، ولسان العرب ١/ ٤٩٨ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٦٢-١٦٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٠ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٨ .

من أساسه ، ولا يصدر ابتداءً عن إيمان ، فهو خبيث من هذه الناحية "[١].

ويقول أيضًا: " أما ما أهل به لغير الله ، أي ما توجه به صاحبه لغير الله ، فهو محرم ، لا لعلة فيه ولكن للتوجه به لغير الله ، محرم لعلة روحية تنافي صحة التصور، وسلامة القلب ، وطهارة الروح ، وخلوص الضمير ، ووحدة المتجه ، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة ، وهو ألصق بالعقيدة من سائر المحرمات قبله، وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلا شريك "[٢].

فلابد إذ أن يكون التوجه بالذبح والنحر والنسك لله وحده وأن يذكر اسمه وحده عليه : " فالقرآن الكريم يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن المقصود في النحر هو التقرب إلى الله، ومن ثم فان أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة ، وكأنما هو الهدف المقصود من النحر ذاته "[٣]. وذلك : " لأن الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله ، ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ، إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أُهل لغير الله به ، وحتَّم ذكر اسم الله عليها، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾[٤] ، وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر، فالشعائر منبثقة عن العقيدة وقائمة عليها ومعبرة عنها "[٥].

الثاني: ما ذبح عند الأنصاب والأوثان وإن ذكر اسم الله عليه:

فما ذبح عند الأوثان والنصب والمقامات فهو من الشرك الذي حرمه الله تعالى

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٤٠ .
(٢) في ظلال القرآن ١ / ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤٢٠ .
(٤) سورة الحج : الآية ٤٣.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢٣ .

بقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ [١] . [٢] .

يقول سيد - رحمه الله- : " وأما ما ذبح على النصب - وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية ، ومثلها غيرها في أي مكان - فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام - حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله " . [٣]

ب- النذر وتقديم القرابين لغير الله:

يقصد بالنذر شرعًا: ما أوجبه المكلف على نفسه مما يظهر فيه وجه القربة تعظيماً لله تعالى" [٤].

وهو نوعان:

الأول: نذر مجازاة : بأن يلتزم الشخص قربة في مقابل حدوث نعمة أو اندفاع بلية، كان يقول: إن شفاني الله أو رزقني ولدًا فله عليَّ صوم كذا أو صدقة أو نحو ذلك، وهذا يجب الوفاء به إذا حصل ما علق به .

والثاني : نذر ابتداء : وهو ما يلتزمه الإنسان من غير تعليق على شرط تقربًا لله ، وهذا أيضًا يجب الوفاء به[٥].

والنذر من العبادات التي أمر الله بالوفاء بها ، ومدح الله الموفين بها ، وبالتالي فلا يجوز التقرب به إلا لله - سبحانه - شأنه شأن بقية العبادات .

ويكون النذر لغير الله - جل وعلا - شركًا به في العبادة ، وذلك كالنذور الواقعة من عُبَّاد القبور للأموات تقربًا إليهم ليقضوا حاجاتهم وليشفعوا لهم ، لأنها تقوم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣

(٢) ينظر كلام أهل العلم في: تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٩٩ ، الدرر المضيئة للشوكاني ص ٢٠، تطهير الاعتقاد للصنعاني تحقيق حلاق ،دار الصحوة - صنعاء ، طبعة عام ١٤١١هـ ص ٣٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٠ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ٣٠٨ ، وفتح القدير للشوكاني ص ٣٤٧ .

(٥) الفقه الميسر لأحمد عاشور : دار اليوسف - بيروت - ب.ت - ص٣١٥ ، وتيسير العزيز الحميد ص٢٠٣ .

على اعتقاد في المنذور له أنه يملك الضر والنفع مع الله أو من دونه " [١] .

يقول سيد - رحمه الله- : " والنذر نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدّرًا بقدر معلوم والنذر لا يكون لغير الله ولوجهه وفي سبيله ، فالنذر لفلانٍ من عباده نوع من الشرك ، كالذبائح التي كان يقدمها المشركون لآلهتهم وأوثانهم في شتى عصور الجاهلية " [٢] .

ويبين سيد - رحمه الله- أن السدنة والكهنة والرؤساء قديمًا وحديثا ومعهم شياطين الجن يزينون للناس التقرب إلى الأوثان ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم من جهة ، وليحصلوا هم على المصالح المادية التي تأتيهم من النذور والقرابين من جهة أخرى ، فيقول : " فأما مصلحة شياطين الإنس - من الكهنة والسدنة والرؤساء - فهي متمثلة أولًا : في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة! ومتمثلة ثانيًا : في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ، وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة! وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللًا إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة! .

وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى، للإغريق والفرس والرومان، والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا..

" وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد ، أو قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه! " [٣].

" ومن ذلك أيضا ما كان عليه المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله ،

---

(١) تطهير الاعتقاد للصنعاني ص ٣٣ ، وأدب الطلب للشوكاني ص ٢٠٣ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣١٣.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٨ بتصرف يسير .

ينذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقربًا وزلفى إلى الله ! ومع توجههم في أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس ، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك ، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد ، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة ، والناس هم الناس ! ، على أننا نرى في زماننا هذا صنوفًا وألوانًا من الشرك، ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له ، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها نصوص القرآن الكريم .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها " القوم " ويسمونها " الوطن "، ويسمونها " الشعب".. إلى آخر ما يسمون ، وهي لا تعدو أن تكون أصنامًا غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون، ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله – سبحانه – في خلقه ، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاقٍ واسع ! "[1].

" وإننا لنشهد اليوم – بعد أربعة عشر قرنًا من نزول هذا القرآن بهذا البيان –أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد تاه في منحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفقد حريته وكرامته ومقاومته، ولقد شهدت في هذا الجانب الخرافي وحده في صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان ، للأولياء والقديسين ، في ذات الصورة التي كانت تطلق بها للآلهة في الزمان القديم! " .[2]

ج- الحلق لغير الله : حلق الرأس ثلاثة أنواع:

الأول: نسك وقربة ، كالحلق في الحج والعمرة .

الثاني : حاجة ودواء وعادة ، يمارسه الإنسان كلما زاد شعره أو احتاج إلى إزالته .

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤١٢-١٤١٣ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٩٠ .

الثالث: بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله ، كما يفعله المريدون لشيوخهم [١]

وقد أشار سيد – رحمه الله– أن حلق الرأس تقربا لغير الله من الشرك ، ومن صور ذلك استبقاء شعر الغلام حتى يحلق على ضريح ولي أو قديس ، حيث يقول "... كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين ، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس..." . [٢]

النوع الخامس : شرك الحاكمية والتشريع والطاعة :

الحاكمية –كما سبق – مصطلح يدل على قضية " الحكم بما أنزل الله " وما يستلزمه ذلك من التشريع والطاعة والإتباع ، وهي قضية عقدية يبنى عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر ، وبين التوحيد الخالص والشرك ، باعتبار صلتها الأصيلة بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، حيث لا يتحقق التوحيد إلا بإفراد الله بالخلق والأمر بقسمة الكوني والشرعي ، وما يتبع ذلك من الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق والطاعة له وحده فيما يأمر به وينهى عنه .

وفيما يأتي بيان لما يتعلق بالشرك في الحاكمية عند سيد ـ رحمه الله ـ :

أولًا: مظاهر شرك الحاكمية :

لشرك الحاكمية والتشريع والطاعة مظاهر عديدة أشار إليها سيد - رحمه الله- ومنها :

١ - تشريع ما لم يأذن به الله :

بين القرآن الكريم في أكثر من موضع قضية إنفراد الله – سبحانه – بالأمر والحكم والتحليل والتحريم غاية البيان ، وإلى جانب الآيات التي تثبت تفرد الله – سبحانه – بالحكم شرعًا وقدرًا ، هناك آيات أخرى تبين الأسباب التي من أجلها استحق الله – سبحانه – هذا التفرد ، والصفات التي من أجلها كانت الحاكمية من خصائص الألوهية .

وقد وقف سيد – رحمه الله– كثيرًا في ظلال الآيات المتعلقة بقضية التشريع ،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٤٦ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٢.

وبين انفراد الله وحده بهذا الحق وتوافي الديانات على إقرار هذا الحق لله -سبحانه - دون شريك [١] .

كما بيَّن الأسباب التي من أجلها استحق الله وحده حق التشريع ، ويمكن استعراض نماذج من كلام - سيد - حول ذلك فيما يأتي :

أ- من يملك حق التشريع للبشر :

يقرر سيد - رحمه الله- في مواضع كثيرة أن الذي يملك حق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم ، هو الله -سبحانه - وليس لأي جهة غير الله شيئا من ذلك الحق فيقول : " والإقرار بوحدة الألوهية وقصر العبودية عليها يتضمن وحدة الجهة التي تصرِّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين ، فمن جعل لغير الله شيئًا من هذا ابتداءً فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ..."[٢]. " وقد كانت المعركة على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام، على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟ وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائمًا لانتزاع هذا الحق من الطواغيت لترده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه.."[٣] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤] " فالحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية "[٥].

" وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك، وقضاءه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئًا. حيث يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار ، وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره ، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضي منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي ، وهذا كذلك لا يكون إلا لله ، شأنه شأن حكمه القدري باختلاف واحد : هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه،

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٨٨ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٨ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٢ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/ ٢٠٢١ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ .

ولكنهم لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلًا راضين "[١].

" إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله ، فالله - وحده- هو الذي يحل للناس ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم ، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق، لأن هذا مرادف تمامًا لدعوى الألوهية ! ومن ثم فأي تحليل أو تحريم ، يصدر عن غير الله - سبحانه - فهو باطل بطلانًا أصليًا ، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء ، والأمور التي أحلها الإسلام وكانت في الجاهلية حلالًا أو حرمها الإسلام وكانت في الجاهلية حرامًا ، فليس ذلك اعتمادًا على أحكام الجاهلية، لأنها باطلة أصلًا بصدورها عن جهة لا تملك حق الحاكمية ، وإنما هو ينشئ هذه الأحكام ابتداءً ، وهذه النظرية الإسلامية في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة ،إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم في نكاح ولا في طعام ولا في شراب ولا في لباس ولا في حركة ولا في عمل ولا في عقد ولا في تعامل ولا في ارتباط ولا في عرف ولا في وضع ، إلا أن يستمد سلطانه من الله حسب شريعة الله .

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئًا في حياة البشر - كبر أم صغر - تصدر أحكامها باطلة بطلانًا أصليًا غير قابل للتصحيح المستأنف، فالإسلام أنشأ أحكامه في الحل والحرمة مستندًا إلى المصدر الذي يملك إنشاء الأحكام " سلطانه الخاص" ولهذا عني القرآن بتقرير هذه النظرية وكرر الجدل مع الجاهليين حولها ، مقررًا المبدأ الأساسي ، وهو أن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده ، وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين إلا بسلطان من الله وفق شريعة الله ، والتحليل والتحريم - أي الحظر والإباحة - هو الشريعة وهو الدين، فالذي يحلل ويحرم هو صاحب الدين ، فإذا كان هو الله فالناس في دينه وإذا كان غير الله فالناس في دين غير الله لا في دين الله ، والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها ، وهي مسألة الدين ومفهومه ، وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠١٨ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/ ٢١١٤ .

الدين وأين هم من الإسلام "[١].

" إن النصوص القرآنية تجعل التحريم والتحليل - والتشريع كله - حقًا خالصًا لله ، وتجعل مزاولته من البشر - بغير ما أذن الله - كفرًا ، بل زيادة في الكفر ، وتعتبر قصر التشريع على الله وحده أصلًا من أصول العقيدة الإسلامية ، وتربط ذلك بالحق الأصيل في بناء الكون .. فتشريع الله للناس إنما هو فرع عن تشريعه للكون ".[٢]

ب- أسباب انفراد الله - سبحانه- بحق التشريع والحاكمية :

يعلل سيد قطب - رحمه الله- وجوب إفراد الله وحده بحق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم بأمور منها :

١ - كون الله - سبحانه - هو صاحب الربوبية والتصرف المطلق في الخلق :

يقول سيد : " فالله هو الخالق ، وهو الرازق ، وهو المالك ، وهو صاحب القدرة والقهر والسلطان وهو العليم بالغيوب والأسرار، وهو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار ، وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ، وألا يكون لغيره نهي ولا أمر ، ولا شرع ولا حكم ولا تحليل ولا تحريم ، فهذا كله من خصائص الألوهية ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة "[٣].

" فالكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله إلا أن يكون هناك إلهٌ واحدٌ يدبر أمره ، و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية ، تعبيد العبيد، والتشريع لهم في حياتهم ، وإقامة الموازين لهم، فمن ادعى لنفسه شيئًا من هذا ، فقد ادعى لنفسه الألوهية ، وأقام نفسه إلها من دون الله ، وبذلك يقع الفساد في الأرض بتعدد الآلهة التي تدعي حق التشريع

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦١٠-٦١١ بتصرف ، وينظر: ١/ ٢٨٦، ٣١٦، ٢/ ٦٢٣، ٨٣٢، ٩٩٠، ٤/ ١٩١٩، ١٩٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٦٥١ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٧ بتصرف يسير، وينظر: ٢/ ١١٦٣ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٣.

وإقامة الموازين"[١].

٢- أن حكم الله أحسن من حكم غيره:

فالله - سبحانه- يستنكر على الذين يريدون حكم الجاهلية ويسألهم قائلًا: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢].

يقول سيد - رحمه الله- : "ومعنى الجاهلية في هذا النص هي حكم البشر للبشر، وهي أمرٌ وجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غدًا، فمن لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، ومن يرفض شريعته الله يقبل بشريعة الجاهلية ، وهذا مفرق الطريق.

والسؤال هنا لتقرير أفضلية حكم الله ، فمن أحس من الله حكمًا ؟.

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم ، خيرًا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟ .

أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟.

أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ .

أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟.

أيستطيع أن يقول : إن الله - سبحانه- وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل رسوله الأخير، ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد ، كان - سبحانه - يجهل أن أحوالًا ستطرأ ، وأن حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع ، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!.

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه هو أو هوى شعبٍ من الشعوب ،

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٠٦-٤٠٧ و٢/ ٨٨٩ بتصرف ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٦-١٤٧ ، ١٦٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

obeikandi.com

أو هوى جيلٍ من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟!! " [١].

" واعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس ،أشار الله إليه بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، فالاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، في كل طور من أطوار الجماعة ، وفي كل حالة من حالاتها، داخل في قضية الكفر والإيمان ، فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحدٍ من البشر، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أي حالة أو طور.. ثم يدعي - بعد ذلك -أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين...

أما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها ، فإن حكمة شرائع الله لا تنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال ، ويمكن الإشارة هنا إلى بعضٍ منها :

* أن شريعة الله تمثل منهجًا شاملًا متكاملًا للحياة البشرية ، يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ، في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها .

* أن هذا المنهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الإنسان وحاجاته ، وحقيقة الكون وطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الإنسان وبالتالي يحصل التوازن والتوافق وينتفي التصادم وهذا ما لا يتوفر في أي منهج من صنع البشر .

* أن هذا المنهج قائم على العدل المطلق ، لأن الله وحده يعلم بما يتحقق العدل، ولأنه - سبحانه - رب الناس جميعًا، فمنهجه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، ومن الجهل والقصور والغلو والتفريط ، الأمر الذي لا يمكن توفره في أي منهج من صنع البشر .

* أنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان - المتمثل في طاعة مناهج البشر والدينونة لها " [٢].

وبناء على ذلك يقرر سيد - رحمه الله- أن قضية التشريع هي قضية إسلام أو جاهلية ، فالجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام ، وهي في

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤-٩٠٥ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٨٩-٨٩٠ بتصرف يسير وينظر ١/ ٢٩٥ .

صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته ، ويستوي أن تكون هذه الأهواء - أهواء فردٍ أو طبقة ، أوأمةٍ أو جيل - فكلها مادامت لا ترجع إلى شريعة الله ... أهواء .

- يشرع فرد لجماعة فإذا هي الجاهلية، لأن هواه ورأيه هو القانون- لا فرق إلا في العبارات.

- وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

- ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية ، لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدًا منها وجهلهم هو القانون- فلا فرق إلا في العبارات!.

- وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية، لأن أهدافها القومية ، أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

- ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحدٍ على حساب أحد ، لا لفردٍ ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لجيل ، لأن الله رب الجميع ، ويعلم حقيقة ومصلحة الجميع ، فلا يفوته - سبحانه - شيء من ذلك ...

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان ، بنص القرآن الكريم " [1].

" إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحدًا ، وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحدًا منهم لمصلحة أحد، وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ بتصرف يسير .

ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم ، أفرادًا كانوا أم طبقة أم دولة "[١].

ج- حكم من ادعى حق التشريع لنفسه أو غيره :

يقول سيد - رحمه الله- : " إن الحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه- سبحانه- بحكم إلوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية من ادعى الحق فيها فقد نازع الله- سبحانه - أولى خصائص إلوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعًا في صورة منظمة عالمية ، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرًا بواحًا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ...

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعًا لله في أولى خصائص إلوهيته سبحانه ، فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قالها فرعون جهرة.

ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر ، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات جهة أخرى غير الله سبحانه ، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية..." .[٢]

ويقول أيضا : " والمشركون هم : الذين يشركون بالله أحدًا في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله ، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه "[٣].

" فأيما إنسان زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده ، أو زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض ، أو زعم أنه يملك ابتداع منهجٍ أمثل من المنهج الذي أراده الله ، أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٥٢٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩.

زعمها جميعًا فقد كفر كفرًا صراحًا لا مراء فيه "[١].

وبعد أن استعرض سيد - رحمه الله- كلام بعض السلف في أهل البدع قال: " فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله ، وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ومن يقره على هذا الادعاء ، فليس هذا بدعة مبتدع ، ولكنه كفر كافر، أو شرك مشرك مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم ، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى، وهو يزعم الإسلام ، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام - إلا من عصم الله - ، وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام "[٢].

" وبالرجوع إلى أصل القضية ، وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك ، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه إنما يدعي حق الألوهية ، وأن الذي يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه - إلا مكرهًا كارهًا منكرًا باليد أو باللسان أو القلب - إنما يقره على ادعاء صفة الألوهية "[٣].

٢- الحكم بغير ما أنزل الله وتحكيم غير شريعته في الناس والتحاكم إليها :

"الحكم بما أنزل الله وتحكيم شرعه والتحاكم إليه، هو مقتضى شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" حيث لا يقبل من العباد إلا العبودية الخالصة لله ، متمثلة في الاستسلام اعتقادًا وشعورًا وعملًا وطاعةً وإتباعًا للمنهج العملي المتمثل في أحكام الشرع ، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يشركون معه غيره ، حيث يتحاكمون إلى غير شريعته ، ويطيعون غير أمره ويتلقون من غيره- سبحانه-

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٣ وينظر مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧- ١١٨، ١٥١
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٠ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .

وهذه كلها تناقض الإيمان ولا تستقيم مع شهادة الحق "[١].

وقد حسم القرآن الكريم قضية الحكم بغير ما أنزل الله في كثر من الآيات، ودمغ من يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق، فقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢] بهذا الحسم الصارم الجازم، وبهذا التعميم الذي تحمله "من" الشرطية وجملة الجواب، بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان، وينطبق حكمًا عامًا، على كل من لم يحكم بما أنزل الله، في أي جيل، ومن أي قبيل.

والعلة هي: أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله، فالألوهية من خصائصها ومقتضياتها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر، وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل - وهو أقوى تعبيرًا من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!.

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه، وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد "[٣].

" وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤]، وصف جديد عام لمن لم يحكم بما أنزل الله وهو " الظلم " ولا يعني هذا الوصف الجديد أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر، وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله، فهو " كافر" باعتباره رافضًا لألوهية الله-سبحانه- واختصاصه بالتشريع لعباده، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس، وهو" ظالم" بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم الصالحة المصلحة

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨ بتصرف.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٨.
(٤) سورة المائدة: الآية ٤٥.

لأحوالهم ، فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعريضها لعقاب الكفر، وبتعريض حياة الناس – وهو معهم – للفساد .

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول، ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو " من " المطلق العام ؟!!

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ، نص على عمومه وإطلاقه وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل ، وليست تعني قومًا جددًا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى ، إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

" الكفر" برفض ألوهية الله ممثلًا هذا في رفض شريعته .

و" الظلم " بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم .

و" الفسق " بالخروج عن منهج الله وإتباع غير طريقه ، فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل ، ويبوء بها جميعًا دون تفريق "[1].

ويمثل الوضوح والحسم في بيان كفر من حكم بغير ما أنزل الله ، جاء حكم من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله حيث يقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2] .

فإرادة التحاكم إلى الطاغوت – وهو " كل ذي طغيان على الله ، فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانًا كان ذلك المعبود أو شيطانًا، أو وثنًا أو كائنًا ما كان من شيء "[3] ، تناقض دعوى الإيمان ، فالطاغوت يقابل شرع الله ، فكل ما لم يشرعه الله فهو طاغوت يجب الكفر به وعدم التحاكم إليه ، فلا إيمان

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٨ .
(٢) سورة النساء : الآية ٦٠ .
(٣) تفسير الطبري . ٤/ ١٣٦

مع الاتجاه إلى التحاكم إلى غير شريعة الله ، والبعد عن تحكيم شريعة الله "[١].

ويلخص سيد - رحمه الله- القضية بقوله: "على أنه بالرجوع إلى أصل القضية وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية، التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك ، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه - إلا مكروهًا كارهًا منكرًا باليد أو اللسان أو القلب - فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية ، وأن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله - سبحانه- ولو في جانب من جوانب هذا الكون هو الحياة البشرية - وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه في رفض ألوهية الله - سبحانه - في هذا الجانب وأن الذي يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه أنه مسلم لله - مهما زعم ذلك بلسانه - طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله ، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، وعدم التحاكم إلى شريعة الله ، ومن باب أولي الحكم بالطاغوت وعدم الحكم بما أنزل الله ، فالحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله والرجوع فيما يختلف فيه ، مما ليس فيه نص إلى الله ورسوله ، لا إلى مصدر سواه .

نقول بالرجوع إلى هذه الأصول التي تقررها نصوص القرآن الكريم الصريحة لا مفهوما ته المستنبطة ، لا تبقى حاجة إلى بيان جديد ، ولا يبقى مجال للجدل الجاد ، وإنما هو المراء الذي لا يستحق الاحترام ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[٢].

والخلاصة : " أن الإيمان والإسلام ينتفيان عمن لا يحكم بما أنزل الله ، ولا عبرة بما يقوله اللسان إذا صاحب هذا القول عدم الحكم بما أنزل الله ، فهذا من الكفر البواح، الذي عند المسلمين فيه سلطان من الله "[٣].

٣- الإعراض عن حكم الشرع وعدم الرضى به :

يقول سيد: " الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٨-١٧٢ بتصرف .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩-١٨٠ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ . بتصرف يسير

الإيمان بالله على الإطلاق" [(١)]." فالتشريعات كلها منوطة بالإيمان، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ، ويستره ويغطيه ويجحده " [(٢)].

ويرى سيد – رحمه الله – أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[(٣)] "عامٌ في اليهود والنصارى والمسلمين ، فهو سؤال التعجب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب.. فهؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ، ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم ، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم ، فلا يستجيبون جميعًا لهذه الدعوة ، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته ، الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله ، فالله يعجب من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم – لا كلهم – عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة ، فكيف بمن يقولون :أنهم مسلمون ، ثم يُخْرِجُون شريعة الله من حياتهم كلها ، ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! أنه مَثَلٌ يضربه الله للمسلمين أيضًا كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ويحذروا أن يكونوا موضعًا لتعجب الله وتشهيره بهم ، فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون " هم الذين يعرضون هذا الإعراض ،إنه العجب الذي لا ينقضي ، والبلاء الذي لا يقدر ، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله ! " . [(٤)].

ذلك أنه " لا يجتمع في قلب واحدٍ الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة .. ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ، ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون ، وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ،

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٦٤ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٤٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٢٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٢ .

ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! "[١].

" إن عدم الرضى بحكم شريعة الله وقانونه ، والإعراض عنها من علامات النفاق ، فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله "[٢].

ولهذا جاء النص واضحًا وحاسمًا حيث يقسم الله - سبحانه- بذاته العلية ،أنه لا يؤمنُ مؤمنٌ حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله ، ثم يمضي راضيًا بحكمه ، مسلما بقضائه ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٣] " شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، يقرره الله -سبحانه - بنفسه ، ويقسم عليه بذاته ، فلا يبقى بعد ذلك قولٌ لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويلٌ لمؤول ، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام ، وهي أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئًا، ولا يفقه من التعبير القرآني قليلًا ولا كثيرًا ، فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام ، جاءت في صورة قسم مؤكد ، مطلقة من كل قيد ، وليس هناك مجالٌ للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله - ﷺ - هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه ، وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ - وذلك قول أشد المرتدين ارتدادًا على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين ، بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير، وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله في حكم الزكاة، وعدم قبول حكم رسول الله - ﷺ - فيها، بعد الوفاة ! ، وإذا كان يكفي لإثبات " الإسلام " أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله ، فإنه لا يكفي في " الإيمان " هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان! هذا هو الإسلام، وهذا هو الإيمان . فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ، وأين هي من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! "[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٣

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٥٢٦. بتصرف .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦ - ٦٧٠ وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٥ .

٤- إقصاء شريعة الله أو بعضها عن الحكم :

يقول سيد : " لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى، وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعًا ، وعلم الله حين رضيه مرجعًا أخيرًا أنه يحقق الخير للناس جميعًا ، وأنه يسع حياة الناس جميعًا إلى يوم الدين ، وأي تعديل في هذا المنهج - ودعك من العدول عنه - هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين ، ولو قال باللسان ألف مرة :أنه من المسلمين! " (١).

"فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئًا إلا الفساد في الأرض ، والانحراف عن المنهج الوحيد القويم ، والتساهل في شيء من شريعة الله لأي سبب أمرٌ لا يجوز أن يفكر فيه مسلم ، فالناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أن يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً ، فهم إذن في دين الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر- في أي صورة من الصور- فليسوا بحال في دين الله ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية ، وهذا مفرق الطريق " (٢). " إن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله ، وليس له من وصف غير الشرك والكفر" (٣) " لأنه بذلك ينازع الله في خصائص ألوهيته حين ينحي شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر أخر ولو كان هو الأمة بمجموعها " (٤).

" إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٠٣-٩٠٤ بتصرف .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ ، وفي ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٨ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ بتصرف .

المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ،إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره ، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " في أخص حقيقتها ، وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! "[1]

ويعقب سيد – رحمه الله– على قصة قوم شعيب واستنكارهم الربط بين العقيدة والشعائر ، وبين الشرائع والمعاملات بقوله: " وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة ، وارتباطها معًا بالمعاملات عند أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب ، وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يقولون :أنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر ، والشريعة والتعامل ، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ووفق أمره ، وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله ، إن بيننا اليوم ممن يقولون :إنهم مسلمون! من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولا في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله " المتحضرون " ؟!.. فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ . .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤-٢١١٥ .

وهم يتساءلون ثانيًا . بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ، فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده ، وينكرون حتى على بعضٍ أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية -النظرية الأخلاقية مثلا- ويعدونها تخليطا من أيام زمان! ، فلا يذهبن بنا الترفع كثيرًا على أهل مدين في تلك الجاهلية "[١].

" إذن فلا يتم الإسلام إلا بإتباع شريعة الله كلها وعدم إشراك أحد معه في الحاكمية ، وأخذ جانب من غير الشريعة هو الشرك "[٢].

٥- شرك الطاعة والانقياد:

تبين -فيما سبق- أن الذين يشرعون شرعًا يخالف شرع الله - جل وعلا - ويحكمونه في الناس يجعلون من أنفسهم أندادًا وشركاء لله تعالى بتعديهم على حق الله - سبحانه - الذي لم يمنحه لأحد من خلقة لا فردًا ولا حزبًا ولا هيئة من الهيئات ، وهنا نعرض لأمر مرتبط بقضية شرك التشريع وهو طاعة المشرعين من دون الله - سبحانه- فيما يخالف شرع الله ، وعلاقة ذلك بالشرك بالله تعالى .

فالطاعة : هي موافقة الأمر بفعل المأمورات ولو ندبًا ، وترك المنهيات ولو كراهةً[٣].

فهي إذن تعني : الإتباع والانقياد للغير، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي الصادرة عنه ، مع الرضى والموافقة ، وهي بهذا مرادفة للعبادة[٤].

فإذا تقرر هذا فلا يمكن أن تكون إلا لله - سبحانه- كونه هو الذي يستحق الطاعة المطلقة والخضوع والذل دون غيره ، وقد جاءت آيات كثيرة بالأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته ومخالفة أمره ، وتسمية الإعراض والتولي عن طاعته كفرًا،

---

(١) المصدر السابق / ١٩١٩-١٩٢٠ بتصرف وينظر أيضا ١/ ٣٨٢ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٧ .
(٣) الكليات للكفوي ص ٥٨٣ ، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٥ .
(٤) تعظيم قدر الصلاة ، لمحمد بن نصر المروزي ١/ ٣٤٦ ، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٣٣ .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)، وبناءً على ذلك فان شرك الطاعة والانقياد يقصد به طاعة غير الله فيما يشرعونه من أحكام مخالفة لشرع الله، سواءً في باب التحليل أو التحريم، أو الجزاء عليهما.

وقد تكلم سيد - رحمه الله- كثيرًا عن شرك الطاعة والانقياد، موضحًا: " أن الإسلام منهج للحياة كلها، من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله، ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله، وخرج من دين الله مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم، فإتباعه شريعة غير شريعة الله يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله " (٢).

وعلل ذلك بقوله: " الإسلام هو طاعة الله والرسول، والطريق إلى الله هو طريق الإتباع للرسول وليس مجرد اعتقاد القلب، ولا شهادة اللسان: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(٣)، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤). فإما طاعة وإتباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله، وهذا هو مفرق الطريق " (٥).

"كما أن من مستلزمات شهادة " أن لا إله إلا الله" العبودية الخالصة له، الممثلة في الاعتقاد والشعور والعمل والطاعة والإتباع للمنهج العملي المتمثل في أحكام الكتاب، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون :أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا الله " (٦).

ويزيد الأمر وضوحًا فيقول: " إن الأمر في هذا الدين - الإسلام - بل في دين الله

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٢
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٢.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٢.
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨.
(٦) في ظلال القرآن ٣٧٨.

كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ هو لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس؟ وعلى الإجابة عن هذا السؤال يترتب كل شيء : لمن الألوهية ؟ ولمن الربوبية ؟.

لله وحده - بلا شريك من خلقه - فهو الإيمان إذن وهو الإسلام وهو الدين .

لشركاء من خلقه معه أو لشركاء من خلقه دونه فهو الشرك إذن أو الكفر المبين.

فأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده فهي الدينونة من العباد لله وحده ، وهي العبودية من الناس لله وحده ، وهي الطاعة من البشر لله وحده وهي الإتباع لمنهج الله وحده بلا شريك ، فهذا مقتضى الألوهية والربوبية ، وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله - شركة مع الله أو أصالة من دونه ! - فهي الدينونة من العباد لغير الله ، وهي العبودية من الناس لغير الله وهي الطاعة من البشر لغير الله ، وذلك بالإتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التي يضعها ناس من البشر لا يستندون في وضعها إلى كتاب الله وسلطانه، إنما يستندون إلى أسناد أخرى يستمدون منها السلطان ، ومن ثم فلا دين ولا إيمان ولا إسلام ، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان . . ومن ثم يستوي أن يكون الخروج على حدود الله في أمر واحد أو في الشريعة كلها ، لأن الأمر الواحد هو الدين ، والشريعة كلها هي الدين ، فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس ، أهي إخلاص الألوهية والربوبية لله - بكل خصائصها - أو إشراك أحد من خلقه معه ، أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض "[٧].

أما من يطيعون من يشرع غير ما أنزل الله مما يخالف شرع الله ، فيرى سيد - رحمه الله -أن من أطاع غير الله في هذا الباب فهو مشرك فيقول في ظلال قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٨]، بعد أن بين أن الله - سبحانه - هو وحده صاحب الحق في وضع الميزان الذي يحتكم إليه الناس ، وهو الذي تصدر عنه الأحكام والقيم والموازين : "

(٧) في ظلال القرآن ١ / ٥٩٥-٥٩٦ بتصرف يسير وينظر: ٢/ ٩٩٠-٩٩١ ، ١٠٥٤-١٠٥٧/٤، ١٩٦٤، ٢٠٣٢ .

(٨) سورة الأنعام الآية ١٢١.

وأمام هذا التقرير نقف لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين، إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزيئات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية ، أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله إلى الشرك بالله ، وفي هذا يقول ابن كثير : " وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾. أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قوله غيره ، فقد تم عليه غيره ، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] وقد روي في تفسيرها عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم . فقال: "بلى" إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم " .[2]

وعن السدي في قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال: "استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾[3] ، أي : الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ" [4].

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير، وكلاهما يقرر في حسم وصراحة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصراحته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك - أن من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه ، ولو في جزئية صغيرة فهو مشرك ، وإن كان في الأصل مسلمًا ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا ، مهما بقي بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله .

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم - في ضوء هذه التقريرات الحاسمة - فإننا نرى الجاهلية والشرك - ولا شيء غير الجاهلية والشرك - إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية، ولم يقبل منها شرعًا ولا

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .
(٢) سبق تخريجه ص٣٢٣ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٣١
(٤) تفسير ابن كثير ، ٤/ ١٦٤٥.

حكمًا - إلا في حدود الإكراه - "[١].

" وحديث رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم فيه دلالة قاطعة في أن قبول التشريع من الأحبار والرهبان - ومثلهم كل أحد غير الله ورسوله متى كان يشرع من عند نفسه لا من شريعة الله - هو عبادة لهم وهو اتخاذهم أربابًا من دون الله "[٢].

" إن إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله -ﷺ - فحد الإيمان وشرطه أن لا يتخذ الناس تشريعًا جزئيًا واحدًا يخالف منهج الله للحياة البشرية ... والنهي عن التحاكم إلى ما لم يشرعه الله ، والتعبير عن هذا النهي بأنه أمر بالكفر بالطاغوت ،له دلالته في التعبير القرآني ، فالقضية قضية عقدية ، قضية كفر أو إيمان، بالله أو بالطاغوت، وهما لا يجتمعان في قلب إنسان "[٣].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٤] . يقول سيد : " والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار، كفار يفترون على الله الكذب ، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله ، ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا ولا ندخل شريعة الله في أوضاعنا ، ونحن مع هذا لا نعصي الله ، وكله كذب على الله...

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم الذي جاء به من عند الله ، فهم لم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يعترفون بوجوده وبقدرته وبتصريفه للكون كله ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون أن هذا شرع الله! وهم بهذا كانوا كفارًا ، ومثلهم كل أهل جاهلية في أي زمان وفي أي مكان....وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول! فوق أنه مفترٍ كفور! "[٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٧-١١٩٨ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص١٦٧ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩-١٧١ بتصرف .
(٤) سورة المائدة : الآية ١٠٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٠-٩٩١ بتصرف .

" أن قضية الطاعة والانقياد لغير الله تناقض الإيمان و تناقض العبودية لله ، وتوقع صاحبها في الشرك بالله تعالى" [١].

وخلاصة كلام سيد في شرك الحاكمية والتشريع والطاعة :

* بالنسبة للحاكمين بغير ما أنزل الله : فكلام سيد قطب – رحمه الله – صريح في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ، فهو يرى أنهم بعملهم هذا – لا يعتبرون مسلمين – مهما ادعوا بألسنتهم ، و يستند في حكمه عليهم بالكفر والشرك إلى الآيات القرآنية الصريحة في هذا الباب – كما سبق – ، والتي صرحت بكفر من لم يحكم بما أنزل الله ، باعتباره رافضا لألوهية الله التي من مقتضياتها إفراده – سبحانه وتعالى – بالحاكمية التشريعية [٢].

* أما بالنسبة للمحكومين بغير ما أنزل الله : فيعتبرهم سيد – رحمه الله– كفارًا أيضًا إذا توفرت فيهم شروط أشار إليها في معرض حديثة ومنها :

١ – إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله [٣].

٢– الرضى وقبول حكم غير الله ، وعدم الإكراه والإنكار [٤] .

٣– رفض حكم الله و عدم الرضى به إذا طبق عليهم والتولي عن قبوله [٥] .

كما يظهر لنا أن سيد – رحمه الله– يرى: " أن قضية الحاكمية والشريعة في هذا الدين هي قضية عقيدة ودين قبل أن تكون مسالة حكم ونظام ، وهي قضية إيمان أو كفر ، قبل أن تكون مسالة صلاح أو فساد ، هي قضية دخول في دين الله ، أو خروج منه قبل أن تكون مسالة شكل من أشكال الحكم ، أو نظام من أنظمة المجتمع ،إنها قضية وجود هذا الدين في الأرض أصلًا ، أو محو هذا الدين !.

---

(١) ينظر: المصدر السابق ٢/ ١٠٥٤-١٠٥٧ ، ٤/ ١٩٦٤ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ .
(٢) ينظر:في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٨ ، ٩٠١ – ٩٠٥، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٨ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ .

ولقد صدق رسول الله ﷺ: وهو يقول عارفًا بطبيعة هذا الدين،ومستشرفًا بروحه لما سيكون : " ينقض هذا الدين عروة عروة ، فأولها الحكم وآخرها الصلاة "[١].

ولقد نقض هذا الدين عروة عروة ، فلينظر الذين يدعون أنفسهم " مسلمين " أين هم من هذا الدين ، لتنظر العصبة المؤمنة في الأرض من أين تبدأ طريقها لإقامة هذا الدين ! "[٢].

(١) رواة : الحاكم ١/ ٦ برقم ٨٧٥٧ ،وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، مكتبة المعارف - الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ، ١/ ٣٦٩ برقم ٥٧٢ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ .

Obeikandl.com

المبحث الثاني
الكفر

أولًا : تعريف الكفر :

الكفر في اللغة : التغطية والستر، ووصف به الليل لستره الأشخاص، والمزارع لستره البذر[١]

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت تعريفات الفرق والعلماء للكفر بناء على الاختلاف في مسمى الإيمان.

والذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة : أن الكفر نقيض الإيمان، وما دام الإيمان : قول وعمل واعتقاد، فإن الكفر : هو كل اعتقاد أو قول أو عمل حكم الشارع بأنه يناقض الإيمان[٢]، وما دام الإيمان شعب ومراتب، فالكفر كذلك شعب ومراتب ، فهناك كفر أكبر يناقض أصل الإيمان، وهناك كفر أصغر يناقض كمال الإيمان[٣].

أما العلاقة بين الكفر والشرك : فيرى بعض العلماء : أن الكفر والشرك بمعنى واحد ، ويرى آخرون: أن هناك فرقًا بين الشرك والكفر ، فالكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب منها الشرك بالله ، فالكفر خصال كثيرة ، كل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان ، والشرك خصلة واحدة وهو إيجاد ألوهية مع الله أو دونه، واشتقاقه ينبئ عن ذلك ، والراجح : أن الكفر أعم من الشرك ، وقد يرد احدهما بمعنى الآخر في بعض النصوص الشرعية [٤] .

أما سيد – رحمه الله – فقد أشار إلى أن معنى الكفر في الاصطلاح الشرعي

---

(١) لسان العرب ٥/ ١٤٤ ، والمفردات للراغب، ص ٤٣٣ .

(٢) نواقض الإيمان القولية والعملية ، د .عبد العزيز آل عبد اللطيف ،ص ٣٧ وما بعدها بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ، ونواقض الإيمان الاعتقادية د .محمد بن عبد الله الوهيبي ، دار المسلم – الرياض ط٢ عام ١٤٢٢هـ، ص ٥٥-٥٦.

(٤) المفردات للراغب ص ٢٦٠ ، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري دار الآفاق – بيروت ط٥ عام ١٤٠٣هـ. ص ٢٢٣ ، وفتح الباري لابن حجر ١/ ٨٥ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٣٦-٤٤ .

مأخوذ من المعنى اللغوي حيث يقول " والتشريعات والأحكام كلها منوطة بالإيمان ، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان ، فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده " (١) .

و يقول أيضًا : " والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي ، هو ملحوظ في مثل هذا التعبير ، أي التعبير الاصطلاحي " (٢) .

ثانيًا : أنواع الكفر :

ذكر سيد – رحمه الله– أنواعًا من الكفر الأكبر المخرج من الملة منها :

أولاً ـ السحـــر :

السحر في اللغة : كلما لطف مأخذه ودق ، وأصله صرف الشيء عن حقيقته إلى غيرها ، ويأتي بمعنى الخداع وبمعنى الاستمالة (٣).

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت تعريفات العلماء للسحر بسبب كثرة أنواعه، وقد أشار الإمام الشافعي إلى ذلك بقوله " والسحر اسم جامع لمعانٍ مختلفة " (٤). وأقتصر على تعريفين:

الأول : "أنه كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التمويه والخداع(٥).

والثاني: "أنه عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتب أو يعمل شيء يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله " (٦) .

ويلاحظ أن سبب الاختلاف في تعريفه هو اختلاف العلماء في معناه ، هل هو حقيقة أم تخيل ؟ حيث يرى البعض أنه حقيقة ، ويرى آخرون أنه تخيل .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٨ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤٦ .
(٣) لسان العرب ٤/ ٣٤٨ ، القاموس المحيط ص ٥١٩ .
(٤) الأم للإمام الشافعي – دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ١٤١٢هـ ١/ ٣٩١ .
(٥) أحكام القران للجصاص – دار الكتب العلمية – بيروت – طبعة ١٤١٥هـ ١/ ٥٠ .
(٦) المغني لابن قدامه تحقيق د . التركي – دار هجر – القاهرة– ط ٢ – ١٤١٢هـ – ١٢/ ٢٩٩ .

والصواب والله أعلم : أن من السحر ما هو حقيقة ، فيفرق بين المرء وزوجه ، ولذا أمر الله تعالى بالاستعاذة به – سبحانه– من السواحر، فدل ذلك أن للسحر حقيقة، وبعض السحر لا حقيقة له بل هو تخيل [١].

وقد ذكر العلماء أن للسحر ثلاثة أقسام :

الأول: السحر الحقيقي : وهو ما له حقيقة في الخارج .

الثاني : السحر الخيالي: وهو ما يعتمد على قوى التخيل في الإنسان فيتصرف فيها بإلقاء أنواع من المحاكاة والصور التي يريد ، باستخدام قوة الساحر فينظرها الرائي كأنها موجودة وهي لا وجود لها في الواقع ، أو بأخذ عيون الرائين وإشغالهم، ويدخل في هذا النوع ما يلقيه الساحر في قلب الإنسان وفكره من صور قبيحة للزوجة والعكس ، فيحيلها بتلك الصور فيكرهها ، فيحصل التفريق بسبب إحداث تلك الصور [٢] .

الثالث : السحر المجازي : وهو ما يقوم على الحيل العلمية ومعرفة خواص بعض المواد ، وخفة الحركة ونحوها، كمن يدخل يده في النار فلا تحترق، لأنه دهنها بدهان مقاوم للحرارة أو نحو ذلك ، ويدخل ضمن هذا النوع النميمة والاستمالة بالكلام ونحو ذلك [٣] .

والسحر من الأمور المنافية لأصل التوحيد والإيمان ، وهو من الظواهر الموجودة في كل الأمم كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [٤] ، ويدخل السحر في أنواع الكفر وفي أنواع الشرك أيضا ، باعتباره يقوم على تعظيم غير الله واستخدام الشياطين وعمل الكفر أو اعتقاده ، وهذا هو السحر

(١) تراجع تفاصيل ذلك في : تفسير الطبري ١/ ٤٦٣ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ ، ومقدمة ابن خلدون مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ب.ت ٢/ ١٩٤-١٩٥ ، وفتح القدير للشوكاني ١/ ١١٩-١٢١، ونيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٤٣ وعالم السحر د/ عمر الأشقر دار النفاش – عمان ط٢ عام ١٤١٨ هـ ص ٨٩ ، و السحر بين الحقيقة والخيال لأحمد الحمد ، مكتبة القرآن – مكة عام ١٤٠٨ هـ ص ٣٧- ٨٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٩٤ – ١٩٥، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ ، وعالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ – ١٤٧ .

(٣) عالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ وما بعدها .

(٤) سورة الذاريات : الآية ٥٢ .

عند الإطلاق [١] .

موقف سيد قطب ـ رحمه الله ـ من السحر:

يمكن بيان موقفه فيما يأتي :

١ - السحر موجود في كل الأمم و يقترن دائما بالوثنية :

حيث يقول سيد : "وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد ، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر ، ففي الوثنيات كلها تقريبًا يقترن الدين بالسحر، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان! " فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! و يقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما بطل السحر! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر!..إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه : "العلم " ! " . [٢]

٢ -أن السحر قائم على التخيل دون أن يغير من حقائق الأشياء :

حيث يرى أن السحر يقوم على التخييل واللعب بالعقول وخداع البصر والحواس باستخدام الحيل والشياطين ، لكنه لا يغير حقيقة ولا طبيعة الأشياء، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ .... الآية ﴾ [٣] .

يقول سيد – رحمه الله– : " فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه .. إنه ما يزال مشاهدًا في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها ! هذا " التيليباثي " – التخاطر عن بعد – ما هو؟ وكيف يتم ؟ كيف يملك

---

(١) المغني لابن قدامه ١٢/ ٣٠١، والأم ، الإمام الشافعي ١/ ٣٩١ وتفسير القرطبي ٢/ ٤٣ وأحكام القران للجصاص ١/ ٥٣ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٤/ ٤٤١ ، والإعلام بقواطع الإسلام للهيثمي دار المعرفة – بيروت طبعة عام ١٤٠٢ هـ ص ٣٩١ ، والقول السديد للسعدي طبعة الجامعة الإسلامية – المدينة عام ١٤٠٤ هـ.ص ٧٤– ٧٥

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٨٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .

إنسان أن يدعو إنسانًا على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره ، فيتلقى عنه ، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟.

وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟.

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها ، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط : ما هي؟ و لم يقل قط كيف تتم ؟.

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم ، إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه ، هذه الأحلام التنبئة - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد ، كيف أحس أن أمرًا ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصًا ما قادم بعد قليل ، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!.

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى .

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة ، والجري وراء كل أسطورة ، إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفًا مرنًا.. لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلم بأن في الأمر شيئًا فوق طاقته ، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه ...

والسحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

تَسْعَىٰ ﴾[١]، ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه ، فالانفعالات تنشأ من التأثرات ، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسببات ، لا تقع كلها إلا بإذن الله ، على النحو الذي أسلفناه " [٢].

و يقول أيضا: " فالسحر ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول" [٣] .

" وهو تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشئ فيه آثارًا محسوسة كآثار الحقيقة ، كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها ، وما يشاهد من تأثر المسحور أحيانًا تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة ، وليس من هذا النوع آيتا موسى ، إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقًا ، تحويلًا وقتيًا أو دائما"[٤] ، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[٥] : فقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ يدل على أن العصا تحولت فعلًا إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، فلم يكن الأمر تخييلًا ، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة" [٦] .

" فعهد الناس بالسحر أن يكون تخييلًا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقًا ، فلا تبقي لها أثرًا ، ولو كان ما جاء به موسى سحرًا ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها ، ولكنهم - أي السحرة - ينظرون فلا يجدونها فعلًا! عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلًا ، وهم أعرف الناس بأنه الحق " [٧].

وفي ظلال قوله تعالى ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[٨] .

(١) سورة طه : الآية ٦٦
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٩٦ - ٩٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٤ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٠٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٣ ، وينظر ٣/ ١٣٤٩ .
(٧) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٥ .
(٨) سورة طه : الآية ٦٦- ٦٧ .

يقول سيد-رحمه الله- : " والتعبير يشير بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى ، وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (١) . ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ فهو سحر من تدبير ساحر وعمله ، والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلًا ، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية ، شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق " (٢) .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ (٣) .

يقول سيد – رحمه الله – : " والنفاثات في العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير في المشاعر ، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء! ، والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى -عليه السلام- : سورة طه ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾(٤)، وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلًا ، ولكن خُيِّل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت ، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها ، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه ، مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة

---

(١) سورة طه : الآية ٦٨ – ٦٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٢ .
(٣) سورة الفلق : الآية ٤.
(٤) سورة طه : الآية ٦٥– ٦٩

التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد، وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه" .[١]

ويذكر سيد - رحمه الله- أن للأستاذ الشيخ / محمد عبده رأيًا آخرًا في تفسير النفاثات في العقد، في تفسيره لجزء عم، وان ذلك يقوم على ميل المدرسة العقلية لتضيف نطاق الغيبيات حيث رد سيد - رحمه الله- على هذه النزعة عند مدرسة الشيخ / محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل[٢] .

٣- أن تأثير السحر في الإنسان لا يخرج عن المشيئة الإلهية ووفقها :

لقوله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣] ، " فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها، وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تمامًا، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار، كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء "[٤] .

٤- أن السحر كفر من عمل الشيطان، والساحر كافر :

يقول سيد : " فالقرآن ينفي عن سليمان - عليه السلام - أنه كان ساحرًا، فيقول : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ فكأنه يعد السحر واستخدامه كفرًا ينفيه عن سليمان - عليه السلام - ويثبته للشياطين : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٧ - ٤٠٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٠٠٨ الهامش ١، وينظر ٦/ ٣٩٧٦-٣٩٧٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٩٦ .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، فالقرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفرًا ، ويذكر هذا على لسان الملكين "[١] ، " وحسبنا أن تعرف أن السحر من عمل الشيطان ، وأنه من ثم كفر يُدان به الإنسان ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد "[٢] .

ثانيًا :الإعراض عن الدين وترك طاعة النبي - ﷺ -:

الأصل في الإيمان - كما سبق معنا- أن يتضمن التصديق والإتباع والقبول والاستجابة ، فالإعراض وترك طاعة النبي - ﷺ - ينافي ذلك ويضاده ، ومن هنا كان الإعراض عن دين الله بعدم التعلم والعمل ، والتولي عن طاعة الرسول - ﷺ- والامتناع عن إتباع شرعه وهديه والصدود عن قبول حكم شريعته كفرًا مخرجا من الملة ، بل هو حقيقة النفاق[٣].

وقد أشار سيد - رحمه الله- في أكثر من موضع في ظلال الآيات التي تتحدث عن إعراض الكفار بأنه الإعراض عن الدين والقرآن الكريم وتعاليمه وأن تلك صفة من صفات الكفار والمنافقين، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[٤] . " فهم معرضون عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، و معرضون كذلك عن دلالتها وشهادتها ، وكذبوا بالآيات وبشهادتها، إتباعًا لأهوائهم لا استنادًا إلى حجة ، ولا ارتكانًا إلى دليل ، ولا تدبرًا للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود "[٥].

ويوضح أن الإعراض عن ما جاء به الرسول - ﷺ - علامة النفاق ودليل على عدم الإيمان ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٦] .

يقول سيد - رحمه الله- : " إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت

---

(١) المصدر السابق ١/ ٩٥ يتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ١ / ٩٦ ، ٩٨ .

(٣) نواقض الإيمان القولية والعملية ، د/ عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ٣٤٤ وما بعدها بتصرف .

(٤) سورة القمر : الآية ٢ .

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٨ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/ ٢١٥١، ٢٢٧٦ ، ٥/ ٢٨١٤ ، ٢٩٠١ ، ٣١٠٨

(٦) سورة النور : الآية ٤٨ .

آثاره في السلوك ، والذين يزعمون الإيمان بأفواههم ، ولكن لا يحققون مدلوله في سلوكهم يكذبون بأعمالهم ما قالوه بألسنتهم ، وهذا الصنف من الناس هم المنافقون الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ " (١).

" فالإسلام هو طاعة الله ورسوله ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٢)، " فإما طاعة وإتباع يحبه الله ، وإما كفر يكرهه الله " (٣).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية :﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي خالفوا عن أمره، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي " (٤).

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٥).

يقول سيد - رحمه الله -: " والنص عام ، ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول - ﷺ - ومشاقته كفر وشرك وردة .

والمشاقة - لغةً - أن يأخذ المرء شقًا مقابلًا للشق الذي يأخذه الآخر، والذي يشاق الرسول - ﷺ - هو الذي يأخذ له شقًا وجانبًا وصفًا غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي - ﷺ - ومعنى هذا أن يتخذ له منهجًا للحياة كلها غير منهجه ، وأن يختار له طريقًا غير طريقه ، سواء أنكر منهجه ﷺ جملة ، أو آمن ببعض وكفر ببعض " (٦) .

" وقد قاتل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - المرتدين على عدم الطاعة لله ورسوله

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥- ٢٥٢٦ بتصرف .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٨٧ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٧٠٠ .
(٥) سورة النساء : الآية ١١٥ .
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٩ .

في حكم الزكاة ، وعد قبول حكم الله ورسوله فيها ، فكيف بمن يترك شريعة الله كلها؟ "[١].

" وذلك أن الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان "[٢].

ثالثًا : جحود وتكذيب ما جاءت به الرسل أو شيء منه :

" اجمع العلماء على أن من جحد أو كذب بشيء مما جاءت به الرسل من الآيات والأحكام فهو كافر بيّن الكفر" [٣] .

" الجحود يكون لما هو مستيقن أنه حق ، كما هو حال كفار قريش الذين جحدوا القرآن الكريم وجحدوا دعوة النبي ﷺ ، مع علمهم بأن ذلك حق ، ولكن خوفًا على ديانتهم وأوضاعهم ومغانمهم ، ومن قبلهم جحد فرعون وملائه ما جاءهم به موسى من الحق، وكذلك الحق دائما لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم ، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم ، أو أوضاعهم أو مصالحهم ومغانمهم ، فيقفون في وجهه مكابرين" [٤] .

ومن ذلك ما ذكره الله – سبحانه – عن قوم هود من أن كفرهم وشركهم الذي استحقوا بسببه الهلاك واللعنة ، هو جحودهم بآيات ربهم وعصيانهم لرسله وأتباعهم أمر الجبارين من عبيده ، وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل ، وأتباع الجبارين ، فهو أمر واحد لا أمور متعددة ، ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله ودانوا للطواغيت بدلًا من الدينونة لله ، فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك " [٥]، " فأتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر" [٦] .

وقد ذكر سيد – رحمه الله– أثارًا كثيرة توضح هذا النوع من الكفر عند مشركي قريش وغيرهم حيث لم يكونوا يشكون في صدق نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته،

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٩٧ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٤ .
(٣) الإبانة لابن بطة ٢/ ٧٦٤ ، والشفاء للقاضي عياض ٢/ ١٠٧٣ وما بعدها .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣ بتصرف ، ٦/ ٣٢٦٧ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٣ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٠١ .

وأن هذا القرآن الذي جاء به ليس كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله، ومع ذلك جحدوا كل ذلك، وكذبوا بماء جاء به، كما قال سبحانه عنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) "(٢).

ومن أنواع كفر الجحود والتكذيب :

١ - الكفر بنبوة الأنبياء أو بعضهم :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٣).

يقول سيد - رحمه الله-: " لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد - عليهما السلام - كما كان النصارى يقفون بأيمانهم عند عيسى -عليه السلام- فضلًا عن تأليهه - وينكرون رسالة محمد ﷺ كذلك.

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعًا، إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الحقيقة.

لذلك عبر السياق القرآني عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله - بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل - وعمن يريدون التفرقة بين الرسل - بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم - عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، وعد تفرقتهم بين الله ورسله، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض، كفرًا بالله وبرسله.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٣.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٧٤ -١٠٧٧.
(٣) سورة النساء: الآية ١٥٠-١٥١.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته - سبحانه - وهي تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس ،ووحدة الرسل الذين جاءوا به ، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فـالله يقول : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ " (١) .

٢- الكفر بالكتب أو بعضها وإنكار الملائكة واليوم الآخر :

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله -سبحانه- على أنبيائه احد عناصر الإيمان ، باعتبار أن مصدر هذه الكتب واحد هو الله - سبحانه - وتحمل منهجًا واحدًا يقوم على الإسلام لله وتوحيده والدينونة له بما شرعه في كل كتاب ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾(٢) . فالكفر بأحد عناصر الإيمان هذه كفر بالجميع ، حيث ذكر الله - سبحانه - في أول الآية الأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله ، ولم يذكر الملائكة واليوم الأخر ، وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر ، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر ، ولكنه أبرزه هنا لأنه موطن تهديد ووعيد ، والذي يكفر بالله ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تبعًا لكفره بالله، الذي يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، ما لا يرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب " (٣) .

وفـي قولـه تعالـى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٤). دلالة على أن من عادى أحدًا من الرسل أو الملائكة فقد عاداهم جميعا ، وعادى الله سبحانه فهو من الكافرين " (٥). " أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفـر الذي يستحق الويل و الثبور"(٦) ،" أما الكفـر بالقـرآن الكريم فإن من يكفر بشـيء من آيات الله القرآنية أو شيء من كتاب الله ، فقـد كفـر بالكتاب

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٧- ٧٩٨ بتصرف يسير ، ١/ ٩٠- ٩١ ، ١٠١ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٣٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٨ بتصرف يسير ، ١/ ٩٠- ٩١ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٩٨ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٩٣ .
(٦) المصدر السابق ١/ ٤٣٦ .

كله "[١]، .. واعتباره كافرًا، فالكفر بالقرآن الكريم من علامات الكفر التي لا شبهة فيها. [٢]

رابعًا : كفر الاستهزاء والسخرية :

فالاستهزاء أو السخرية بأي شيء من مسائل الدين وشرائعه ، سواء كان استهزاء بالله – سبحانه – أو برسوله محمد – ﷺ – ، أو أحد الرسل ، أو بالقرآن الكريم ، أو بشيء مما جاء به الإسلام ،كفر وردة ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[٣].

حيث ورد في سبب نزولها أن بعض المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك قال: ما أرى قراءنا هؤلاء، إلا أرغبنا بطونًا، و أكذبَنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء – يقصدون قراء القرآن – فرفع ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فجاءوا يعتذرون إليه فنزلت الآية [٤].

والنص عام في كل من يخوض في مسائل الدين والعقيدة ، حيث اعتبره القرآن الكريم كفرًا مهما كان دافعه وسببه [٥]، فما يستهزئ بدين الله وعباده المؤمنين به إنسان سوي العقل ، فالعقل السوي يستشعر حق الله – سبحانه – في التعظيم والعبادة " [٦] .

والاستهزاء بالله وآياته ورسله من صفات الكفار ، وعلامات الكفر كما ذكر الله ذلك في كثير من الآيات سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب أو غيرهم ، فالحكم في الجميع سواء " [٧] .

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٦ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٢ بتصرف يسير .
(٣) سورة التوبة : الآية ٦٥-٦٦ .
(٤) تفسير الطبري٩/ ٤٠٩
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٢ بتصرف .
(٦) المصدر السابق ٢/ ٩٢٢ .
(٧) ينظر: المصدر السابق١/ ٢٥٢ ، ٢/ ٩٢٢ ، ٣/ ١٠٤٥ ،٤/ ٢١٢٩، ٥،٢٣٨٠/ ٢٧٦٠، ٢٩٦، ٣١٧ ، ٦/ ٣٢٢٥ .

خامسًا: رفض شيء مما جاء به الرسول ﷺ أو إنكار صلاحية الدين أو بعضه في هذا الزمان :

وذلك لان الله أكمل لهذه الأمة دينها وأتم عليها نعمته ورضيه لها ، وهذا الدين منهج وشريعة لجميع جوانب الحياة البشرية إلى يوم القيامة ، وبالتالي فتعديل شيء فيه كإنكاره كله ، لأنه إنكار لما قرره الله – سبحانه – من تمامه وكماله ، وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه ، والعدول عنه لمنهج أخر هو كفر كما وصفة الله تعالى " [١].

فالذي يتصور أن في هذا الدين الإسلامي نقصًا يستدعي الإكمال ، أو قصورًا يستدعي الإضافة، أو أنه دين محلي أو لزمن وبالتالي يستدعي التطوير والتحوير، فليس بمؤمن لأنه لم يصدق الله ولم يرتضي ما ارتضاه الله ...فشريعة الإسلام بشهادة الله ، هي شريعة الله للإنسان في كل زمان ومكان .[٢] " ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله – سبحانه– " [٣].

" ولقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته ، نزل مفصلًا محتويًا المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة ، و أحكامًا تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية ، وبهذا يكون في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة ، هذا ما يقرره الله – سبحانه – عن كتابه ، فمن شاء أن يقول : إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل ولكن ليقل معه إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين مكذب بقول رب العالمين! " [٤].

" إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أنزله الله ، وكما بَلَّغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم أولًا: "واهمون" فيما بدا لهم ، وهم ثانيًا : "كافرون" فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٣٣ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٣ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٤ ، وينظر ٢/ ٦٩٧ .

مخالفًا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين "[١].

" فأيما إنسان زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض ، فقد كفر كفرًا صراحًا لا مراء فيه ، واختار لنفسه موقف العداء الصريح لله وللبشرية "[٢].

سادسًا : طاعة الكفار :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣]، يقول سيد: " فالله يحذر من طاعة أهل الكتاب فإنه الكفر، ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم وفيهم رسوله يعلمهم "[٤].

" وذلك إن طاعتهم والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة ، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها ، وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس ، والمقصود طاعتهم فيما يخالف أمر الله – سبحانه– من العقائد والتشريعات والأحكام "[٥]

سابعًا :ترك الأعمال كلية أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة:

وذلك لأن الإيمان لا يصح إلا بوجوده عمليًا في الواقع من خلال العمل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٦].

يقول سيد - رحمه الله- : " إن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة

(١) معالم في الطريق ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٣ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٠-١٠١ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٢ ، ٤٩١
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٣٨ ، ٤٤٠ .
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢- ٤.

دقيقة على مدلوله المعنوي ، وفي العبارة هنا قصر بلفظ : " إنما ". وليس هنالك مبرر لتأويله – وفيه هذا الجزم الدقيق – ليقال : إن المقصود هو " الإيمان الكامل"! فلو شاء الله – سبحانه – أن يقول هذا لقاله، إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة ، إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين ، والتوكيد في آخر الآيات : " أولئك هم المؤمنون حقًا " يقرر هذه الحقيقة ، فغير المؤمنين " حقًا " لا يكونون مؤمنين أصلًا ، والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضًا ، والله يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1] . فما لم يكن حقًا فهو الضلال ، وليس المقابل لوصف ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ هو المؤمنون إيمانًا غير كامل ! ولا يجوز أن يصبح التعبير القرآني الدقيق عرضة لمثل هذه التأويلات المميعة لكل تصور ولكل تعبير! .

لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمنًا أصلًا ، جاء في تفسير ابن كثير : عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] . قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا – أي عن أعين الناس – ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ... ، وطبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلًا، وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه ، إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه "[3] .

– كما يرى سيد – رحمه الله– أن إنكار الصلاة كفر ، كونها من المعلوم من الدين بالضرورة ففي ظلال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[4]. يقول سيد : " وهي كناية عن عدم الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين"[5].

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٢ .
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٤– ١٤٧٥
(٤) سورة المدثر : الآية ٤٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٦١ .

وختامًا:

انقل نصًا من النصوص التي ذكر فيها سيد - رحمه الله- جمله من المكفرات الاعتقادية والقولية والعملية ،حيث يقول: " لقد اعتبر الإسلام قضية التوحيد هي قضيته الأولى والكبرى ... وناط بها قضية الإيمان والكفر... فجعل الإقرار العملي الايجابي بها- في كل الصور والمجالات جملة - هو الإسلام ، وجعل رفضها في أي صورة من صورها ومجالاتها هو الكفر الذي لا يتحقق معه إيمان ولا إسلام ، ولا يقبل معه عمل في دنيا ولا آخرة ، وجعل سواء :

* أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله.
* أو أن هناك آلهة مع الله - سبحانه وتعالى- .
* أو أن لله أبناء وأصهارًا .
* أو أن الإله هو هذا الحجر وهذا القمر .
* جعل سواءً أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئًا من هذا كله .
* أو أن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله - سبحانه وتعالى - معه أو من دونه .
* أو أن يحكم بغير شريعة الله .
* أو أن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله - سبحانه وتعالى - معه أو من دونه .
* أو أن يتحاكم إلى غير شرع الله - سبحانه - إلا وهو منكر، لا يملك غير إنكار القلب أو اللسان، فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة و الأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين .[1]

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧ .

المبحث الثالث

النفاق

النفاق في اللغة : مأخوذ من نافقا اليربوع ، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهرها ترك قشره رقيقه حتى لا يعرف مكان هذا المخرج ، فإذا رابه ريب دفع ذلك برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض ، وباطنه حفر ، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر.(١)

أما في الاصطلاح : فالنفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، أو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد ، فهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وإن كان أصله في اللغة معروفا.(٢)

والنفاق على نوعين : أكبر مخرج من الملة ، وأصغر غير مخرج من الملة .

فالنفاق الأكبر : قد يكون اعتقاديًا ، وقد يكون عمليًا ، وذلك لأن القرآن الكريم لما ذكر صفات المنافقين ذكر منها تنقصهم للرسول - ﷺ - ، والسخرية بالدين ، ومناصرة الكفار، ونحو ذلك من الأعمال.

أما النفاق الأصغر : فهو نوع من الاختلاف بين السرية والعلانية مما هو دون الكفر، كالرياء في غير أصل العمل ، وكالخصال الواردة في حديث شعب النفاق من الكذب ، وإخلاف الوعد ونحوها .(٣)

ـ وقد كثر الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن الكريم ، وبيان صفاتهم وأخلاقهم، وأنهم شر أنواع الكفار وأعظمهم ضررًا على المسلمين ، وأن مآلهم إلى الدرك الأسفل من النار ، وتحذير المسلمين منهم باعتبارهم أكثر الناس عداءً للإسلام ، وأشدهم ضررًا عليه حتى قال فيهم ربنا - سبحانه وتعالى- : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾(٤) .

وقد وقف سيد -رحمه الله ـ عند ظاهرة النفاق كثيرًا ، في ظلال الآيات التي

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١/ ٣٥٨، ٣٥٩ المفردات للراغب ص٥٠٢.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٥/ ٩٨ والإيمان لابن تيميه ص٢٨٤.
(٣) نواقض الإيمان الاعتقادية، د/ محمد الوهيبي ٢/ ١٥١ وما بعدها بتصرف .
(٤) سورة المنافقون : الآية ٤.

تتحدث عنهم ، وعن صفاتهم ، وأحوالهم ،مبينًا سبب نشأة النفاق وضرره، ومستعرضًا صفات المنافقين والتي بسببها حكم الله عليهم بالكفر وفيما يأتي استعراض موجز لما ذكره سيد - رحمه الله - عن النفاق الأكبر المخرج من الملة .

أولًا: ظهور النفاق وسببه:

يقول سيد : "حركة النفاق حركة مدنيه ، لم يكن لها وجود في مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعوا إليها ، فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد ، الذي لا يحتاج أحدٌ أن ينافقه، فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة ، وانتشر في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، أضطر ناس ممن كرهوا لمحمد- ﷺ - وللإسلام أن يعز ويستعلى ، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة اضطروا إلى التظاهر بالإسلام وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول[١] رأس النفاق المعروف، الذي تظاهر بالإسلام بعد معركة بدر ، وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية في أول العهد المدني ، وكراهيتهم كذلك لظهور محمد - ﷺ - ودينه وأتباعه ، كان وجود اليهود بهذا الوضع مشجعًا للمنافقين ، وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات ، ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض ، فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ، وإذا كانوا في رخاءٍ ظلت الدسائس سرية والمكائد في الظلام" [٢] .

"وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامرتهم وأخلاقهم، واتصالهم باليهود واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات في السور المدنية ، فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحًا أو تصريحًا ، وجاءت سورة كاملة تتحدث عنهم ، هي سورة المنافقين ، وقد نقل سيد رحمه الله فقرات متعددة حول حركة النفاق من كتاب "سيرة الرسول " [٣] توضح سبب ظهورها ومواقفها من الإسلام ، والدور الخطير الذي قاموا به " [٤].

---

(١) هو : عبد الله بن أبي بن مالك الخزرجي ، ينسب إلى جدته سلول ، رأس النفاق ، أظهر الإسلام بعد بدر ، وله مواقف كثيرة في حرب الإسلام والكيد له ، مات سنة ٩هـ، انظر: الأعلام ٣/ ٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٣ ـ ٣٢٩٤ و ٣/ ١٥٧٢ .

(٣) هو للأستاذ محمد عزة دروزة .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٤ـ٣٥٧٢ ، وينظر ١/ ٤٥

" وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة الرسول ﷺ لم تنقطع في أي وقت تقريبًا ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والآخر " (١)، "وهم يمثلون العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمسلمين ، العدو الكامن داخل المعسكر ، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح " (٢)" ويمثلون نموذجًا مكرورًا في أجيال البشرية جميعا "(٣).

ثانيًا: صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية :

أشار سيد -رحمه الله -في ظلال القرآن إلى كثير من صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية ومنها :

١- إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء والسخرية منه :

الأصل في المسلم الحق تعظيم وتوقير النبي- ﷺ - وطاعته ومحبته فوق كل محبه ،وإيذاؤه والسخرية منه والاستهزاء به - ﷺ - يناقض دعوى الإيمان ، وهي أمور تدل على البغض والمعادة والمحادة له - ﷺ - ، وقد كَفَّرَ الله -سبحانه - من يستهزئ بالله وآياته ورسوله - ﷺ - ، وأجمع أهل العلم على كفر المستهزئ بالرسول - ﷺ - وردته (٤).

وقد أشار- سيد رحمه الله- إلى: " أن أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسًا يسمع فيه آيات الله يكفر ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى ، يسمي ذلك تسامحًا أو يسميه دهاءً، أو يسميه سعة صدر وأفق ، وإيمانا بحرية الرأي !!! وهي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ، وهو يموه على نفسه في أول الطريق ، حياءً منه أن تأخذه نفسه متلبسًا بالضعف والهوان! إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله ، هي آية الإيمان، وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ، وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدًا ، ثم تهمد ، ثم تخمد ثم تموت !.

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٧٢ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٧٥ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٢ .

(٤) ينظر كلام العلماء في : نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ١٥٧ وما بعدها .

وأهله ، فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق! " (١) .

- أما أذية النبي ﷺ والاستهزاء به والسخرية منه ولمزه فهو النفاق والكفر الصراح كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

يقول سيد - رحمه الله - : "إنه سوء الأدب في حق الرسول - ﷺ - يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات ، حيث يصفونه ﷺ بغير حقيقته ، ويتهمونه بأنه لا يفطن إلى غش القول وزوره ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ثم ذكر ما وقع من بعض المنافقين في غزوة تبوك من استهزاء بالرسول - ﷺ - وأصحابه ولمزهم ومحاولة بعضهم تنفير دابته لتطرحه على الأرض ، ووصم الله إياهم بالكفر، وأن النص عام في كل من يخوض ويلعب ويستهزئ بالله وآياته ورسوله " (٣).

" وكذلك إستهزاؤهم بالنبي - ﷺ - في سماعهم للقران عنده وخروجهم قائلين ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ على سبيل التهوين من شأن السورة النازلة ، والتشكيك في أثرها في القلوب ، والغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد - ﷺ - لا يفهم ، أو لا يعني شيئًا يفهم أو السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد - ﷺ - وحرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على كل كلمة يتلفظ بها الرسول ﷺ ، وكلها أمور تدل على السخرية الظاهرة أو الخفية " (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٠- ٧٨١ .

(٢) سورة التوبة : الآيات ٦١-٦٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٠ - ١٦٧٢ بتصرف ٣/ ١٦٦٧ ، ١٦٧٨ ، ١٧٢٦ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٤١ ، ٦/ ٣٢٩٤ بتصرف يسير .

٢- تولي الكافرين ومحبتهم ونصرتهم :

من صفات المنافقين الكفرية تولي أعداء الله – عز وجل – من اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة ، وتأمرهم معهم ضد الإسلام وأهله ، حيث يقرر القرآن الكريم في أكثر من موضع الصلة الوثيقة بين المنافقين وبين الكفار عمومًا .

يقول سيد : " وهذه الحملة القوية في القرآن الكريم على المنافقين بسبب توليهم لليهود تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم "[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٢] ، لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا . والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام "[٣].

وقد أشار الله تعالى إلى أن أبرز صفات المنافقين توليهم للكفار من دون المؤمنين تحت أعذار واهية يتسترون وراءها ليخفوا حقيقة تفاهتهم فقال سبحانه: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٤] .

يقول سيد - رحمه الله- : " والتهكم الواضح في استعمال كلمة " بَشِّر "مكان كلمة أنذر، وجعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سببَ هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين، وسوء ظنهم بالله،وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة ، وهذه اللمسة تكشف عن طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى ، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين ، وما أحوج ناسًا ممن يدعون الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن، إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين ، وإلا فإن الله غني عن العالمين!"[٥].

٣- الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ والتحاكم إلى الطاغوت :

يصف القرآن حال المنافقين حين يدعون إلى ما أنزل الله و إلى الرسول فيصدون

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٣ .
(٢) سورة الحشر : الآية ١١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٨ ، ٣٥٣٠ وينظر ٦/ ٣٢٩٨ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٣٨ – ١٣٩.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٩ – ٧٨٠ بتصرف .

بأنه نفاق ، وأن إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ، خروجًا عن الإيمان ، بل وعدم دخول فيه ابتداء ، كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة، فيقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (١).

والراجح أن المقصود بالآية هي طائفة من المنافقين الذين يزعمون الإيمان.. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك ، إنما يريدون التحاكم إلى الطاغوت- وهو كل منهج لا يستمد مما أنزل الله - وهذا ينافي مقتضى الإيمان البدهي ، وهو تحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ، فأبى وصد فهو يخالف البديهة الفطرية ، ويكشف عن النفاق والزعم الكاذب للإيمان ثم يعرض النص مظهرًا من مظاهر النفاق في سلوكهم ، حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وانكشاف أمرهم للمسلمين ، فيلجئون إلى الإيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت إلا الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته ، وحجة المنافقين الملتوين . . هي هي دائما في كل حين " (٢).

ويقرر في أية أخرى هذه الصفة في المنافقين فيقول سبحانه ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣).

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوي ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان ، المنافقين الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام ، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا

(١) سورة النساء : الآية ٦٠- ٦٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٣- ٦٩٥ بتصرف .
(٣) سورة النور : الآية ٤٧- ٥٠ .

أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير ﴿ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ "(١).

٤- الفرح بمصاب المسلمين والتربص بهم الدوائر :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

يقول سيد : " فالآية تبين سمات المنافقين ، وترسم لهم صورة زرية منفرة ، وهم يلقون المسلمين بوجه ، ويلقون الكفار بوجه ، ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين ، فتبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، وما يتربصون بها من الدوائر ، وهم – مع ذلك – يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة ، في قلوبهم السم ، وعلى ألسنتهم الدهان" (٣) . " فهم لا يريدون خيرًا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجدوا خيرًا ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾(٤) ، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب ، وما ينزل بهم من مشقة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾(٥) ، فينتظرون متى تدور الدائرة على المسلمين "(٦) .

٥- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والإفساد في الأرض وزعم الصلاح :

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٧) .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٢٦ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٤٠- ١٤١ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨١ -٧٨٢ بتصرف يسير .
(٤) سورة التوبة : الآية ٥٠ .
(٥) سورة التوبة : الآية ٩٨ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٤ ، ١٧٠١ .
(٧) سورة التوبة : الآية ٦٧- ٦٨ .

يقول سيد : "المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة ، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد ، سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة ، تلك سماتهم الأصلية ، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس ، وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا ، وغمزًا ولمزًا ، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون . إنهم - نَسُواْ اللَّهَ - فلا يحسبون إلا حساب الناس والمصلحة - فَنَسِيَهُمْ - فلا وزن لهم ولا اعتبار ... فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق موعودون بالنار واللعنة والعذاب المقيم " .(١)

وفي الآية الأخرى يبين الله أن المنافقين يفسدون في الأرض أشنع الفساد ، ويخادعون الناس ويتبجحون بأنهم مصلحون ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾(٢).

والذين يفسدون أشنع الفساد ، ويقولون : أنهم مصلحون ، كثيرون جدًا في كل زمان . يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم تتأرجح مع الأهواء " (٣).

٦- التخلف عن الجهاد والرغبة عنه :

وهذه صفة بارزة في المنافقين ، لأنهم يحبون السلامة والدعة " فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، يمثلون نموذجًا مكرورًا " (٤).

" يفرحون بالتخلف عن الجهاد ، وتدركهم ثقلة الأرض والحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان فيتركون

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣ بتصرف .
(٢) سورة البقرة : الآية ١١- ١٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٤ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٦١- ١٦٦٣ بتصرف

الجهاد ، وينفرون منه ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ، وتظل هذه الصفوف في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألذُّ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال "[١].

٧- المكر والخداع والإرجاف والوقيعة بين المسلمين :

يقول سيد : " إن المنافقين لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء ، فهم ينفون عن أنفسهم الإفساد ، ويتجاوزون إلى التبجح والتبرير بأنهم مصلحون ، و يضيفون إلى ذلك اللؤم والتآمر في الظلام ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[٢].

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيئ براعة ، وهو في حقيقته ضعف وخسة ، فالقوي ليس لئيمًا ولا خبيثًا ، ولا خادعًا ولا متآمرًا ولا غمازًا في الخفاء لمازًا "[٣].

" وبالإضافة إلى المكر والخداع للذين آمنوا ، فإن المنافقين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة ، ويثبطون الناس عن الجهاد ويبثون الخور والضعف في الصفوف ، وإذا خرجوا مع المسلمين أسرعوا بينهم في الوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفي المسلمين من يسمع لهم وفي وقائع التاريخ الكثير من أفاعليهم "[٤].

٨- البخل والإنفاق رياءً والتضييق ماديًا على المسلمين :

وصف الله – سبحانه وتعالى – المنافقين وحالهم في البخل بقوله: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[٥]، فهم أبخل الناس بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس ، وبعضهم يعاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل ، فلما استجاب الله له تنكر لوعده وتولى معرضًا عن الوفاء بما عاهد ، فيكون ذلك سببًا في النفاق في

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٨٢ بتصرف يسير ، وينظر أيضا ٣/ ١٦٨٤ ، ١٥٣٣ ، ١٧٢٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٤ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٤- ٤٥ بتصرف ، وينظر ٢/ ٧٨٣ .
(٤) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٣/ ١١٦٣ ، ٥/ ٢٨٤٠ ، ٦/ ٣٥٧٥ – ٣٥٧٨ .
(٥) سورة التوبة الآية ٦٧ .

قلبه ، و إذا أنفق فإنما ينفق رياءً ، ويتخذ ما ينفق مغرمًا ، ولهذا أخبر -سبحانه - أنه لن يقبل منه إنفاقهم ، وعلل ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله، وأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون .

فقال وتعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (١)" . (٢)

ولم يقف الأمر بالمنافقين عند حد البخل والشح ، بل تجاوز عداؤهم للإسلام ، وخبث الطبع ولؤم النحيزة ، أن يرسموا خطة لتجويع المؤمنين ومحاربتهم في لقمة العيش وذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة ، كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين ، وخطة التجويع يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة ومناهضة الأديان ، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين ، وهي خطة المنافقين كما تحكيها الآية: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣).

٩- التثاقل وعدم الرغبة في العبادة :

يقول سيد : " فمن علامات النفاق أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، فهم يأتونها مظهرًا بلا حقيقة ، لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعا ، فلا يقومون إليها بحرارة الشوق إلى لقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والاتصال به ، والاستمداد منه ، إنما هم يقومون يراءون الناس ، ومن ثم يقومون وهم كسالى ، كالذي يؤدي عملا ثقيلا ، أو يُسخَّر سخرة شاقة ، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلا ، فهم لا يتوجهون إلى الله إنما يراءون الناس ، وكذلك ينفقون ما ينفقون وهم كارهين مكرهين " (٤).

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥٣-٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٥، ١٦٧٣، ١٦٧٩ .

(٣) سورة المنافقين الآية ٧ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٤، ٣/ ١٦٦٥ بتصرف .

١٠ - اللحن في القول والتظاهر بأعمال الخير :

أشار- سيد - إلى أن القرآن الكريم أوضح أن المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين متخفين ، يتظاهرون بالإسلام وهم له كائدون ، ويعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين ، يمكن معرفتهم من خلال ملامحهم ، ولهجتهم ونبرات أصواتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم ، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[١]" .[٢].

" وأنهم يتظاهرون بالصلاح ،ويسترون ببعض أعمال الخير تمويهًا وخداعًا للمسلمين، كما فعل أصحاب مسجد الضرار، الذين اتخذو مكيدة للإسلام والمسلمين، والإضرار بهم ، وستر الكفر، والتآمر على الجماعة المسلمة ، تحت شعار الدين . وهذا المسجد ما يزال يُتَخذ في صور شتى تلاءم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، يُتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ، ويُتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ، ويُتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق،ويُتخذ في صور شتى كثيرة :

ومن أجل أن مساجد الضرار هذه كثيرة ، يتحتم على الدعاة كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها ، ولنا أسوه في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله- ﷺ - بذلك البيان القوي الصريح" [٣].

" ويوجد اليوم من يتمسح بالدين أحيانا ممن آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ويتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين ، أما إن قال الدين كلمة الحق ، وحُكْم الحق ، فلا حاجه بهم إليه"[٤] ، وكلها صور للتستر بالدين لحربه ، والله غالب على أمره .

---

(١) سورة محمد : الآية ٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٨ بتصرف يسير .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٠، ١٧١١ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٩٢ بتصرف .